"2084 حكاية العربي الأخير"
استبصار روائي للهوية العربية

هند سعدوني ❖ المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار❖ قسنطينة❖ الجزائر

Email : hind.sadouni@gmail.com

تاريخ الإرسال : 2018/04/17 تاريخ المراجعة : 2018/06/01 تاريخ القبول : 2018/06/12

ملخص

إنّ عالم اليوم الذي يسوّق نفسه في شكل شمولي، يضمر الكثير من المخاطر التي تتهدّد الهويّة والخصوصيّة، ويتعاظم هذا الخطر بفعل عقليّة الاستهلاك التي أقرّتها أساليب الحياة الجديدة. ولأنّ الكتابة الروائية ما انفكت تصاحب حركات الهوية عبر أطوار زمنية مختلفة، جاء هذا البحث في السياق ذاته من أجل تتبّع المنجز السردي لواسيني الأعرج، والذي تكرّس في شكل مشروع يتطوّر على الدوام، مع التركيز على واحد من نصوصه الاستبصارية/التنبؤية "2084 حكاية العربي الأخير"، هذا النص الذي رغم سوداويته يحتفظ بأطروحته للبعث الجديد من الحرائق والرماد، داخل هوية إنسانية لا تمحو تمايزنا، ولا تنسى أن الآخر مرآتنا.

الكلمات المفتاحية: الهوية، الآخر، الشمولية، الخصوصية، العربي الأخير، الاستبصار

Abstract

Today's world is noticed in inclusive form, is fraught with many dangers, which threaten identity and privacy. This risk is heightened by the consumption mentality, which has been adopted by new lifestyles, because the narrative writing has always been associated with the movements of identity through history. Our research has come to follow Wassini El-Arej's novels, which is dedicated in the form of a project that is constantly developing, with a focus on one of his predictive text "2084 The last Arabic Tale". This text, despite its pessimism, believes in the new resurrection, inside human identity that does not erase our distinction, without forgetting that the other is our reflection.

Keywords: *identity, other, inclusiveness, privacy, the last Arabic, predictiontion*

Résumé : Le monde d'aujourd'hui est perçu de manière inclusive et comporte de nombreux dangers qui menacent l'identité et la vie privée. Ce risque est renforcé par la mentalité de consommation, qui a été adoptée par les nouveaux modes de vie, car l'écriture narrative a toujours été associée aux mouvements d'identité à travers l'histoire. Notre recherche concerne les romans de Wassini El-Arej, qui sont dédiés sous la forme d'un projet en développement constant, qui met l'accent sur l'un de ses textes prédictifs intitulé «2084 Le dernier conte arabe». Ce texte, malgré son pessimisme, croit en la nouvelle résurrection, à l'intérieur d'une identité humaine qui n'efface pas notre distinction, sans oublier que l'autre est notre reflet.

Mots-clés: identité, autre, inclusion, vie privée, dernier arabe, prédiction

المقدمة:

نشهد اليوم عالما جديدا، يُسوِّق نفسه في شكل شمولي يضمر الكثير من المخاطر، التي تهدّد الهويّة والخصوصيّة والمحليّة، وهي قيم وجب على كلّ شعوب العالم أن تحافظ عليها لتحقيق التوازن الكوني، المبني على اختلاف فطري جُبِلت عليه الأرض. هذا الاختلاف الذي يشكّل سرّ التنوّع الضامن للاستمرار في الحياة كدافع قوّي للإحساس بذواتنا من جهة، وبالآخرين من جهة ثانية. دون تحيّز ولا إقصاء، رغم أن التاريخ القديم والجديد على حدّ السواء، قد سجّل صراعات كبيرة، تدلّ على عدم استقرار هذه العلاقة الاحتوائية، مع الحفاظ على اختلافها البائن والضامن في حقيقة الأمر للكيانين معا -كيان الأنا وكيان الآخر-[1] كما إنّ الحادث اليوم؛ يفرض قسرا على الشعوب المستضعفة الدخول في طريق الاستسلام. فما من شك في أنّ الهويّة العربية ضمن هذا الزخم الثقافي العالمي الضاغط صارت تقدِّم تنازلات في اللاوعي، ما تلبث أن تتجسّد واقعا سريعا بفعل عقليّة الاستهلاك التي أقرّتها معطيات الثقافة الجديدة ما بعد الحداثية.

كثيرا ما تقف علاقة الأنا بالآخر عند مفترق طرق صعب، ما تلبث أن تعاود الانطلاق فيه من جديد، دون أن نسائلها عن مدى صواب هذا المسلك الجديد من خطئه، ليكتفي التاريخ بنظرة الترقّب الآنية ثم ممارسة فعل التسجيل لاحقا. لكن للآداب والفنون رأي آخر؛ في طريقة رصدها ومتابعة تمظهراتها واستطلاع آفاقها، ربما بحسّ التنبؤ المستدرِك. ومن أجل ذلك، تحاول هذه الورقة البحثية أن تقف عند فعل الكتابة الروائية وكيف صاحب حركات الهوية

من تأكيد فاسترجاع في مقابل معرفة الآخر فالتأقلم معه أثناء المراحل السابقة، أما في المرحلة الراهنة فهو إعادة رسم ملامح الذات من جديد في مقابل محاولة التملّص من تلبّس الآخر الساكن فينا بسلطة الشكل وعمق المعنى معا. واستقصاء لهذا، جاءت الدراسة بعنوان: الاستبصار الروائي للهوية العربية، عبر تجربة واسيني الأعرج الروائية، من خلال مراقبة منجزه السردي الذي يتكرّس في شكل مشروع قيد التطوّر، بناء على معطيات تستجد يوميا وبكثافة شديدة. مع التركيز على واحد من آخر نصوصه الاستبصارية/التنبؤية –إن صحّ التعبير- روايته: "2084 حكاية العربي الأخير".[2]

عتبة:

وقبل ولوج المسارات الغامضة للمغامرة التنبؤية الروائية التي سيقودها 'واسني الأعرج'، يتعيّن أوّلا شرح موقف العنوان وبيان سبب صياغته على هذا النحو: "استبصار روائي للهوية العربية"؛ حيث تقوم فرضية هذه الدراسة على القيمة التنبؤية التي تكتنزها القدرة الروائية الهائلة، والتي من خلالها تُقدِم على كشف عوالم الغيبية، ووضعها موضع المساءلة والاحتجاج. "إن الرواية التي لا تكتشف عنصرا مجهولا في الوجود هي رواية لاأخلاقية."[3]

والبداية من الصيغة الصرفية للوزن (اِسْتَفْعَلَ)، والتي تأتي في كلام العرب على عدّة أوجه من المعاني؛ إذ يفيد المعنى الأول: الطلب مثل استكتب الرسالة أي طلب الكتابة، واستنصر أي طلب النصر. أما المعنى الثاني فيُفيد التحوّل، أي أنّه يستخدم للتعبير عن تحوّل الفاعل إلى شيء آخر: استحجر الطين، أي تحوّل إلى حجر. وقد يُفيد المعنى الثالث وضع الصفة على المفعول من قبل الفاعل، أي أن الفاعل يَعُدُّ المفعول بصفة الفعل، مثل: استحسن الثوب، أي عَدّه حسنا.

وعليه؛ فبَصُرَ بالشيء: رآه فعلمه، من ثمّ أحاط به. وتبصّر الشيء: استقصى النظر إليه. واستبصر الأمر: تمكّن من النظر إليه وتأمّله.[4] ومنه: استبصار: مصدر اِسْتَبْصَرَ: وصول إلى علاقة ذات معنى بين مختلف أجزاء الموقف، ويعني ذلك التوصل بصورة تلقائية إلى فكرة جديدة. ويختلف معناه جزئيا باختلاف السياق الوارد فيه؛ نحو: استبصار الهلال: إبصاره بعد

تطلّع وترقّب. استبصار الطريق: استبانته. استبصار الأمور: النظر إليها ببصيرة وتأمّل. استبصار الشيء: مراقبته بانتباه. فيصبح استبصار المستقبل توقّعه وتكهّنه وتنبّؤه.

ليستقيم العنوان في النهاية على محور التنبؤ، الذي يستوعب ماضيه ويعايش حاضره، فيبني من خلاله فكرته وتصوّره المستقبلي عن الهوية العربية، بكل ما تعنيه من قيم ضرورية للاستمرار، وما تُشكّله للوجود الإنساني الطامح بغرور للخلود الرمزي. إنّنا لنعتقد جازمين بأن القدرة على التنبؤ بالمستقبل تتأسّس من إحاطة بكل المعطيات السابقة والآنية أوّلا، ثم من إدراك قيمة التواتر الذي يبني وجود الأمم اللاحق من عدمه ثانيا.

كما يجدر التنبيه في هذه العتبة أيضا إلى ضرورة التأكيد في كل مرّة على أنّ علاقة الأدب العربي بالتاريخ وطيدة وعريقة؛ فإن كان الشعر -ديوان العرب- قديما قد تحوّل إلى متعالٍ نخبويّ يحاكي الأمجاد والانتصارات، فالرواية -ديوان الدنيا الحديثة- قد أصبحت بحثا نوعيا في تاريخ هوية مأزومة. "فقدت ما كان عندها ولم تعثر على ما تريد الحصول عليه، هوية معلقة في الفراغ، ترى إلى ماضٍ لا تستطيع العودة إليه وترنو إلى مستقبل تعجز عن الوصول إلى أبوابه."[5] ومن رحم هذه المعاناة التي تعيشها الهوية العربية واقعا جاء موقف الرواية في السياق ذاته غير بعيد عن عدم القدرة على التأقلم، والغوص في مسارات التكهّن والتوقّع. وبعيدا أيضا عن أي تاريخ سلطوي "مشغول بالمنفعة لا بالحقيقة، ومشغول أكثر بثنائية فاسدة هي، النصر والهزيمة، على خلاف الروائي المأخوذ بعالم القيم والمدن الغائبة، التي ترد للإنسان جوهره المفقود."[6] وهنا يكمن الفرق بين الرواية والواقع رغم الشبه الكبير بينهما؛ بين تاريخ الرواية الذي يحاول التحقيق في النسخ المختلفة باختلاف الروّاة وبين تاريخ السلطة الذي له راوٍ واحد ووحيد، عليم، ظهير، لا تخفى عليه خافية، متباه بسلطته في الرواية؛ حيث المصدر والمرجع هو، الظاهر والباطن هو، المرسل والمرجع والرسالة كلهم هو. وهذا الفاصل بين المؤرخ والروائي هو الظاهر بقوّة في هذا النص وغيره من نصوص المشروع الروائي/التاريخي لواسيني الأعرج؛ حتّى تحوّل إلى مشروع واضح المعالم في ترصّد البنى التحية أو الحدائق الخلفية للتاريخ.

قد يتبادر للأذهان سؤال له علاقة بنظرية الأنواع الأدبية: لمَ الرواية تحديدا هي الأكثر تعمّقا في بيان العلاقة الشائكة والمتكاملة بين الأنا والآخر؟ والجواب -في تقديرنا الشخصي- هو: إن كان الشعر فن الذات وحديث النفس وصورة عن تشكّلات الأنا، فالرواية ومنذ نشأتها وهي فن الآخر شكلا ومضمونا، ثمّ هي تاريخ جامع لكليهما. وفي جزء مهم من التاريخ، توجد هناك

علاقة كبيرة بين الأنا والآخر؛ حيث يرسم كل طرف منهما حدوده مع ما يقابله، ويُشكِّل كينونته بالمقارنة معه. ولقد درجت الرواية كفن حديث على كتابة 'الآخر' Autre و'الهناك' Ailleurs منذ بدايتها، وهي التي جاءت كثمرة لالتقاء ثقافتين ملحمية غربية وقصصية عربية، في مطلع العصر الحديث، لتؤكد على إمكانيات الإبداع في تحيين أساليبه وتطوير أشكاله، بما يتماشى ومعطيات الأزمنة الجديدة والمختلفة. ظهرت الرواية حديثا -كما أسلفنا-، وفي عصر يكاد يكون أكثر العصور تأزما في العلاقة بين الأنا العربي والآخر الغربي، لما اتّسم به من صدام حضاري ونبذ عرقي واختلاف ثقافي، وذلك في أوج الحركات الاستعمارية الأوربية على بلاد العرب مشرقا ومغربا. عندما استشعر أهمية هذا "الآخر" كمركب ثقافي مختلف ومخالف، وهذا "الهناك" كفضاء دلالي متغير ومغاير. ليُقدّم لنا في النهاية رؤية نقدية فاحصة لوجود الآخر والهناك، الذي قد يغدو هو السبيل إلى معرفة الأنا وتثبيتها. فحتى وإن كانت الهوية (L'Identité) تقع في مقابل الغيرية (L'Altérité)، إلاّ أنّهما لا ينفصلان ولا يختلفان عن حاجتهما إلى بعضهما البعض؛ وكلّ ما فعلته الرواية بذكاء أنّها استطاعت أن تسرد بمهارة عالية قصة الآخر وحكاية الهناك، في سياق نقلها لنجوى الأنا وتاريخ الهنا. "فهذا المد والجزر بين 'الأنا' و'الغير' غير متناه الأبعاد، بل كثيرا ما يذهب الكاتب في البحث عن نفسه من خلال الغيرية (...) الغير في نفس الوقت الشبيه وغير الشبيه، شبيه بمعالمه الإنسانية أو الثقافية المشتركة، والغير الشبيه بفردياته الشخصية أو اختلافاته القبلية. الآخر يحمل فعلا في ذاته الغرابة والمشابهة." [7] ضمن هذا التداخل الحتمي اختلاف وتشابه يتمثّل الآخر جزءا منا، ويرسم شيئا من ملامحنا، ويبني بعضا من ثقافتنا؛ فالآخر بقدر ما نبحث عن اختلافنا معه لنثبت ذواتنا بقدر ما يشترك معنا ويشبهنا. وبالنظر لكلّ هذه المعطيات يحدث القبول بأنّ الغيرية يمكنها أن تكون بشكل أو بآخر هويّة جماعية متعدّدة (Identité plurielle). لكن، وضمن هذه العلاقة الشائكة، تنفتح حدود الذات ومعها يبدأ سيل من الأسئلة الوجودية في التدفّق، بغية الاستفسار عن المصير. فالتغيّر في العصر الحالي حادث لا محالة. وعليه، لا بدّ من النظر إلى أبعد ممّا هو كائن، وتوقّع ماذا بعد قبول أنّ الآخر يؤثّر فيّ إلى درجة قد لا أجد نفسي فيها أبدا، إلى درجة أنّ تملّك كينونتي يصبح غير ممكن، عندها يمكن أن أكون في خطر. والمجازفة الخطيرة بدأت تمسّ بصميم شخصيتي، وبهذا قال جال دريدا.[8]

إنّنا ومن قلب هذه العلاقة الجدلية القائمة على التنافر والتجاذب في آن واحد، لا نستطيع إنكار أنّ: "الآخر 'جزء من الذات'، ونفي الآخر بتر للذات، بمعنى أنه قطع لجزء منها هو 'الجزء الملعون' من الذات. وهو ضروري لاكتشافها، إذ تصور الذات لا ينفصل عن تصور الآخر."[9] ونكاد نعتقد جازمين بأنّ التركيبة الكونية التي قامت على مبدأ الثنائيات تحوّلت شيئا فشيئا من العام الوجودي إلى الانحصار في الضيق الدوغمائي:

(نحن والآخر) ⟵ (العرب والغرب) ⟵ (الإسلام والكفر)، وهي التي أوجدت الجزء الملعون إلى جانب الجزء المرغوب في تكويننا الإنساني، وأن شقاء العقل البشري لهو نتاج منطقي للبحث عن حالة التعايش بينهما.

مشروع واسيني الأعرج الروائي لإثبات الذات:

الملاحظ على كتابات 'واسيني الأعرج' الروائية ارتباطها الوثيق بالأنا التي لا تتوقّف عن التواصل الدائم مع الآخر -وقد يعني 'الأنا' الكاتب و'الآخر' موضوعه- في علاقات متباينة تباين المراحل ومعطياتها المرافقة لها؛ فمن مرحلة (ماضية) في كتابة تاريخ الأنا الجمعية ومشاهدة تاريخ الآخر والرواية التاريخية الإنسانية: "كتاب الأمير - مسالك أبواب الحديد -"[10] تلك الرواية التي قال عنها الكاتب نفسه أنها "لا تقول التاريخ لأنه ليس هاجسها؛ ولا تتقصّى الأحداث والوقائع لاختبارها، فليس ذلك من مهامها الأساسية. تستند فقط على المادة التاريخية، وتدفع بها إلى قول ما لا يستطيع التاريخ قوله."[11] ثم مرحلة (حاضرة) في كتابة الأنا الفردية بكل ما تحمله من علاقات مع ذوات مختلفة كثيرة والرواية السيرية: "سيرة المنتهى -عشتها.. كما اشتهتني-"[12]، التي تستشرف التعب وعلامات النهايات، على هذا النحو من التشاؤم: "ألتفت نحوك للمرة الأخيرة، تبدو ملامحك غائمة قليلا، أقبّل يدك وجبهتك، وأبحث في فوضى الكلمات عن جملتي التي حملتها لك قبل أن أنطفئ في مسالك النور، وعتمة المكابدة وشطط المهم."[13] وصولا إلى نقلة مخالفة وسريعة يعبر فيها المشروع الروائي من مرحلة تشكيل صورة الآخر إلى مرحلة ترميم صورة الأنا، بما تبقّى لديه من ملامح لا تزال عالقة بالذهن، ومجلوبة من بقايا تراث اختزلته الأحاديث والقصص. إنها مرحلة كتابة ما ستكون عليه الأنا (المستقبلية) في رواية: "2084 حكاية العربي الأخير"؛ النص المفتتح بعبارة مقتبسة عن أحد المتطرفين اليهود، مفادها: "العربي الجيّد الوحيد، هو العربي الميّت"[14]، والمختتم بمساعي إنقاذ أو استرداد ذلك الإنسان الأول 'آدم' والعربي الأخير 'غريب'، في محاولة أخيرة لإعادة المسمّى 'آدم غريب' إلى

الحياة، "قبل أن تكبر العاصفة ويدركه غبار الانفجار الثقيل."[15] هنا لا يخفى علينا البعد التنبئي الذي قد تتوافر عليه نصوص، يحمل صاحبها رؤية للعالم من خلال ما يصدر عنه من ثقافة الأنا وما يحتك به من ثقافة الآخر. وهو ما سيأتي بيانه مفصلا عبر محطات الدراسة اللاحقة.

قبلها، يجدر الانتباه إلى المتوالية التاريخية للهوية العربية، وقد مرّت بعديد المراحل أثناء تقدّمها في الزمن وتطوّرها في المفهوم، حيث اتّصفت بمجموعة من الصفات تتّسم بالإبطاء والإطالة، أو على النقيض من ذلك بالقطع والتنكّر، بحسب حاجات العصر وحالات البشر. والتي يمكن رصد تطوّرها وفق مخطط كرونولوجي، كما يأتي:

القوقعة والاكتفاء بالأنا ⟵ الانفتاح واكتشاف الآخر ⟵ الصراع ومحاولة استرداد الأنا وتشوّش صورة الآخر ⟵ المفارقة والتشظي أو التمزّق بين عالمية الآخر وخصوصية ومحدودية الأنا ⟵ محاولة ترميم الأنا بعد التيه وضياع كلّ المعاني عقب فوضى الخراب (وهي في حقيقتها للأنا والآخر في آن واحد، ولكن زواية الرؤية هي التي تأخذ بجانب دون غيره.)

يبدو جليا أن أكثر المراحل تضاربا وتشوّشا هي المراحل الأخيرة، التي تمّ فيها الانتقال من اكتشاف الآخر وإثبات الذات في الحقبة ما قبل الكولونيالية، إلى البحث عن الذات من جديد في الحقبة ما بعد الكولونيالية؛ في "مرحلة ارتدادية"، اتّصفت بالسرعة المباغتة والعنف الصادم، وكأن كلّ ما حملته الدراسات الثقافية والتوجّهات الفلسفية والأدبية الجديدة من وعود لمنح الهوامش مساحة للتواجد، كان مجرّد ذر للرماد في العيون. فالواقع الآن يؤكّد على أنّ هامشا غربيّا/أمريكيا تحديدا هو الوحيد الذي سيطر، وتحوّل بدوره إلى مركز وبؤرة، مقصيّا باقي التواجدات والهويات الأخرى، وعلى رأسها الهوية العربية.[16]

بالعودة إلى مشروع 'واسيني الأعرج' الروائي؛ يمكننا القول بأنّ توثيق المرحلة الماضية بالرواية التاريخية كان عبئا فكريا ثقيلا ينطوي على قدرة استقصائية: "هي رحلة ثقافية لا تعني الشيء الكثير بالنسبة للقارئ الذي يتعامل في النهاية مع نتاج يصله، هو النص الروائي. لأن الكتابة الروائية تبدأ بعد هذه المرحلة. وهي حالة أخرى، لكنها تتم وهي مثبتة رجليها في عمق تربة تعرفها جيّدا، صعبة وشاقّة لكنّها لذيذة."[17] وكاتبنا ممن يركضون وراء أبطالهم ويقتفون

آثارهم في المكان ويتتبعون تواترهم في الزمان، بهوس معرفي اكتشافي وحسّ بوليسي استطلاعي رهيب.

لهذا كان الرجوع بعيدا في الزمن بغية الحفر عميقا في تربة التاريخ الصلبة، "الروائي يستطيع أن يعبر أجيالا أو قرونا. بحركة من يده دون أن يحطم الخيال."[18] ويحدث أن يتشتّت هو نفسه بين العجز عن فهم الواقع والهروب إلى الماضي، فماذا عن التوجّه نحو المستقبل؟ بين تسجيل وتبرير أزمة الواقع والبحث عن الذات في طريق مسدود... بين حرية الاختيار وقسرية الالتزام. الأدب لا يروي التاريخ، الأدب يستعمل الطريق الملتوية للتعبير عن التاريخ. "فهل يندرج هذا التسخير ضمن إعادة صياغة التاريخ فنيّا، ومن ثَمَّ كشف المسكوت عنه؟ أم أنّ هذا التسخير يندرج ضمن استشراف المستقبل بقراءة الماضي؟ أم يندرج تحت المقارنة بين ما كان في الماضي وما يكون الآن؟"[19]

تكشف رواية "كتاب الأمير -مسالك أبواب الحديد-" عن زمن قصّتها المنتمي إلى مرحلة كتابة تاريخ الأنا الجمعية وتاريخ الآخر (الماضي)، وهو ما تعكسه صورة الغلاف بلوحتها العتيقة بورتريه لمؤسس الدولة الجزائرية الحديثة الأمير عبد القادر الجزائري، الذي يعلو كرسيا خشبيا قديما شاغرا وكأنّه محجوز أبد الدهر له دون سواه. يعمل الروائي واسيني الأعرج "على إعادة بناء التاريخ الصامت للأمير عبد القادر الجزائري. لا يعيد سرد الوقائع التاريخية، إنما يعيد ترتيب مشاهدها الخلفية. يقوم ببناء الصامت في سيرة الأمير عبد القادر ويفضح تقرحات الحرب وعدم جدواها ولا يبرّئ أحدا حين يحدث الموت. في كتاب الأمير يتم الاستئناس بالتاريخ ولكن لا يتم تبنّيه أو تكريره، بل استنطاقه وفضح أسراره وجعله موصولا بالغامض الذي لا يتم الانتباه إليه. إنه عمل يعتني بالحديقة الخلفية للتاريخ فيجعلها معرّضة للضوء."[20] ويخبر عن مسكوتات التاريخ، كما ينير المناطق المعتمة فيه، بل ويبني حياة أكثر اكتمالا من الواقع في حد ذاته. "و لم يجانب عبد الرحمن منيف الصواب حيم عرف الرواية بأنّها 'تاريخ من لا تاريخ لهم'، أو سجل حيّ، أو وثيقة اجتماعية تاريخية يقرأ فيها الناس أفكارهم وأحلامهم وضباب آمالهم و سير حياتهم، أو 'مرآة شديدة القدرة على الالتقاط' يرون فيها صورهم وأسماءهم وذواتهم العميقة و مخزون واقعهم و مصائرهم، أو حين يرى في قدرة الرواية على أن 'تعرض حيوات بشر أكلت السياط ظهورهم' سببا من الأسباب التي ميزتها عن البحوث والدراسات وجعلتها 'جنسا أدبيا قائما بذاته'، فإنه يفتح الرواية على التاريخ ووقائع الحياة وصيرورتها، وعلى السياسة بأوسع معانيها وأعمقها، مؤسسا وشائج علاقة حيوية تربط ما بين الرواية من جهة،

والمفهوم العميق لكل من التاريخ والسياسة على نحو ما ينبغي أن يتجسّدا في الرواية التي هي تاريخ حيٌّ وديوان حداثة من جهة أخرى، فالرواية تكتب التاريخ بطريقتها الخاصة، فلا تكون كتابا مصقولا في التاريخ، بل 'مصباحا' يضيء التاريخ عبر انفتاحها عليه، فيجعلنا نرى وقائعه وأحداثه ومشاهده من منظورات متباينة وزوايا عديدة."[21]

هي مرحلة تثبت الأنا عبر سردها لقصص الوجود الجمعي، وشخصيات تاريخية ضاربة في عمق خصوصية الأصالة وعالمية الحضارة. ولكن مشروع الكاتب لم يتوقّف عند هذا الحدّ، فواكب مرحلة أخرى، راحت تحكي ذاتها في رواية سيرية، تقوم على 'التذويت' وسرد معاناة الإنسان وتجاربه الشخصية القاسية عندما صارت الرواية أكثر تراجيدية ممّا هي عليه في الحياة، ربما لأنّ "الأزمنة السعيدة ليس لها فلسفة."[22] هي مرحلة أخرى لكتابة الأنا الفردية (الحاضر)، مثل رواية "سيرة المنتهى -عشتها.. كما اشتهتني-"، التي تتكشّف من صورة غلافها لقارئها، لتخبره عن تجسيد الحاضر الذي يباغتنا ويمر سريعا إلى اللامبالاة ويدير لنا ظهره بكل بساطة. بعد أن تزوّد بمعطفه الذي سيقيه برد المجهول، وحقيبته التي سيفتش بين دفاترها عمّا هرّبه من تلك اللحظة الهاربة المسماة الحاضر، أو حتى من تلك اللحظة المطوّلة التي بدأ اليقين يهجرها والمسماة بالماضي، نحو لحظة أخرى مجهولة، جميع قياساتها في الزمان والمكان على حد السواء تسمّى برسم المستقبل غيبا.

وليست الرواية ببعيدة عن التخييل الذاتي، فمنذ نشأتها في شكلها الأدبي الجديد الحديث "تعكس تماما هذا التوجّه الفرداني والمجدّد. أمّا الأشكال الأدبية السابقة فقد عكست النزعة السائدة لثقافاتها واعتبرت الانسجام مع الممارسة التقليدية أعظم محكّ للحقيقة."[23] ويجب أن لا ننسى بأن السيرة الذاتية مصدر الهوية الشخصية في ذخيرة ذكرياتها: "لو لم تكن لدينا ذاكرة، لما كان لدينا أية فكرة عن السببية، ولا عن تعاقب تلك السلسلة من الأسباب والنتائج، التي تشكّل ذاتنا وشخصيتنا."[24]

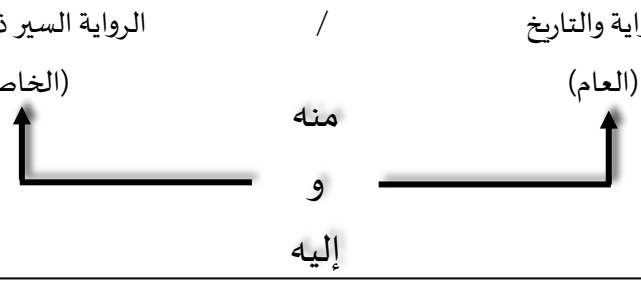

لايزال مشروع واسيني الأعرج الروائي لإثبات الذات مستمرا في التسجيل والتوثيق؛ وصولا إلى مرحلة كتابة ما ستكون عليه الأنا (المستقبل) في صيغتها التنبؤية التي ستطالعنا بها روايته المأساوية الأخيرة. وستحمِل المتلقي على هذا الإحساس العلامة الأيقونية للغلاف؛ صورة فوتوغرافية حقيقية للكاتب نفسه، وهو مستغرق في نظرة تأمل تعكس الكثير من الدلالات المتناقضة المحيّرة، عبر تيه العيون التي بدت نصف مفتوحة وكأن الضوء قد أتعبها، أو أن التفسير أرهقها، أو أن بداية الدخول إلى عصر الضياع شرّدها، إضافة إلى حركة اليد المنبئة عن وضع التفكير والاستعداد للقول؛ ومنه جاءت الرواية "2084 حكاية العربي الأخير"..

نبوءة الهوية العربية في رواية "2084 حكاية العربي الأخير":

ـ تصنيف وتوصيف الرواية:

الرواية المستقبلية بامتياز، أليست هي النص اللاحق القائم على نص سابق للانجليزي 'جورج أورويل' وروايته: '1984'؟ رواية "2084" رواية حفيدة، تماما كما بطلها ليتل بروز حفيدا للبطل بيغ بروذر.

يقول واسني الأعرج عن روايته هذه: "ما هو مآل العرب داخل دوامة التحلل والتفكك التي قذفت بهم خارج التاريخ وحوّلتهم إلى شعوب ضائعة، بلا أرض ولا هوية، يبحثون عن معاشهم وسط عالم جشع، وعودة محمومة إلى الحاضنة الأولى: الصحراء وكأن تاريخ آرابيا القادم والقاسي يبدأ من تلك اللحظة. لكن آدم غريب اللاست أربيك أو العربي الأخير، والعالم الكبير المختص في الفيزياء النووية، يفكّر في استعادة شيء ممّا ضاع."[25]

هذا النص -في تقديرنا الشخصي- بعض من تنبؤات وبقايا هوية. مزيج من خيال علمي وتخييل أدبي. نصّ الهوية القادمة، الذي لا يتطلّب خبرة بالعرافة، ولا قدرة خارقة على التنبؤ؛ يقول واسني الأعرج عن روايته هذه: "الأمر لا يحتاج إلى عبقرية، بقدر ما هو توصيف للوضع العربي الراهن وقراءة في معطياته الآيلة للسقوط تباعا."[26] هذه الرواية بقدر ما هي استشرافية سابقة لأوانها بقدر ما هي تشخيص حالة، "لكن الأجيال تغيرت والثقافات تداخلت."(الرواية، ص139) لأنها رواية توصيفية للوضع العربي، وقد تُدرَج أيضا في خانة الرواية السوداوية، بما صورته من مشاهد قاتمة ومصير مظلم يتربّص بأبناء هذه الأمّة هوية ووجودا.

هي رواية غرائبية أيضا، من حيث البناء الروائي ونوع الأحداث؛ "والأنا في تطوراته قد يغترب عن ماضيه ليشابه عوالم كانت غريبة في بداية بحثه عن نفسه، لأن حالة الغرابة ليست جامدة كما يتصوّرها البعض، بل هي واجبة التطوّر."[27] أو هي حكاية خرافية مدعومة بطوطميتها، المتمثّلة في رفيق بطل الهوية العربية 'آدم غريب' الذئب 'رماد' ورمزيته العجيبة: "المهم أن نظل على نفس الوتيرة يا رماد. أن لا نستسلم لقدر الموت. أن نسابق الريح، نتحدى المطر، (...) الذي يموت فينا ليس الأجداد ولكن الحاضر الذي لم يشبهنا في أي يوم من الأيام. تقول جدتي إن الذئب رماد عندما يجري لا يلتفت وراءه."(الرواية، ص226) ليس هذا فقط، بل بإمكان هذه النص أن يُعدّ رواية حرب، فما يحكيه على لسان الماريشال من صلب الحرب العالمية الثالثة، حيث لا يثبت فيها إلاّ القوي الصابر على تحقيق النتائج. ونكاد نجزم فعلا بأنّ جميع المعارك الطاحنة التي خاضتها 'أنا' آدم التائهة هي القصّة الحقيقية والحكاية الجوهرية لهذه الرواية.

رغم كثرة التصنيفات النوعية التي تصدقها هذه الرواية، يبقى حسّها التنبئي هو الأعلى حظا في هذا التصنيف، كما أكّد الروائي على صدق نبوءة رواية "2084 حكاية العربي الأخير"، وقال أنّه ربّما الأمر الوحيد الذي لم يُصبه بدقّة، لم يكن تكن السوداوية القاتلة، بل بالعكس. وإنّما كان ذلك البعد الزمني إلى غاية 2084. ربّما، كان من الأصلح أن يكون أقرب في الزمن من ذلك بكثير، وها هي علاماته قد بدأت تظهر بوضوح وتسارع من الآن.[28] على هذا الأساس؛ سنقدّمها كـ"رواية تنبئية"، تتزوّد بطاقات الاستبصار الروائي لتستطلع آفاق الهوية العربية في الزمن المستقبل.

استئناسا بما سبق، تعرض صورة الغلاف بورتريه رجل عربي، هو الكاتب نفسه. كل شكله بزي غربي، يرتدي طقما (Costume) ويعتمر قبعة (Chapeau). لكن النظرة في عينيه فعربية حائرة وحركة اليد الموضوعة على الذقن مع بسط الإبهام فقط على الخد كانت داعمة أيضا لدلالة الاستغراق في التأمّل -ربما من هول ما يرى في الواقع الحاضر أو في المتوقّع المستقبل، وفقا لمعطيات الضياع الكثيرة التي انتشرت اليوم بعبث لا حدّ له في بلاد العرب-. أمّا بأعلى الصفحة فيقف ظل الكاتب أو حتى العربي الأخير على خط مائل نحو الانحدار، أو آيل للزوال... وفي مقابل كل هذا وبصورة تكاد تكون تطابقية؛ سيروي السارد داخل الرواية قصّة آدم الأمريكي بكل تفاصيله، و لكن أصله من آرابيا الغربية تحديدا، بما لا يترك مجالا كبيرا

للتكهّن بحضور الكاتب القوّي فكرة و رؤيا. أو كأنّه هو الكاتب تماما بتمام، أو شبيهه الذي يفكّر مثله ولا يقول ما يخالفه.

بعد الغلاف والصفحتين الداخلتين اللتين تتبعانه تكرارا وإضافة، توجد صفحة بيضاء كاملة لم تكتب عليها سوى بضع كلمات في المتن إضافة إلى تعقيب وبيان إسناد في الهامش:

العَرَبِي الجَيِّد الوَحِيدُ، هُوَ العَرَبِي المَيِّتُ

أمّا التعقيب في الهامش فجاء فيه: "هذا التصريح هو جزء من رسالة بعث بها الدبلوماسي الأمريكي باتريك سرينغ إلى المعهد العربي الأمريكي. نشرت في الشرق الأوسط نقلا عن الواشنطن بوست. اضطر بعدها إلى الاستقالة من منصبه. أخذها عنه لاحقا جوش بوزينستن، أحد المتطرفين اليهود: أعزائي اليهود، اقتلوا العرب الآن. العربي الجيد الوحيد، هو العربي الميت."(الرواية، ص7)

قُسِّم المتن الروائي إلى ثمانية أجزاء، حمل كل جزء منها عنوانا مستقلا وذُيِّل بمقطع سردي مقتبس من الرواية أو من خارجها: 1- رماد على حواف الغياب (أربعة فصول). 2- إيفا تفتح النوافذ المغلقة (أربعة فصول). 3- كوابيس أمايا الثقيلة (أربعة فصول). 4- رآها إذ تراءت له (أربعة فصول). 5- من ليس معنا، فهو ضدنا (أربعة فصول). 6- العقرب الأسود يشتعل في الرمل (أربعة فصول). 7- الخطأ مهد الكارثة (أربعة فصول). 8- إيفا تغرس حلما في قلبه (ثلاثة فصول). بيد أن الجزء الأخير هو الوحيد الذي جاء في ثلاثة فصول وليس في أربعة مثل سابقيه، كدليل على عدم الانتهاء بعد، وكأن الإنسان لم يقل كلمته الأخيرة بعد، أو أن العربي الأخير لم يمت بعد، أو أن الحياة قد تستمر بعد، أو أن القارئ مدعو إلى أن يضع استبصاره الخاص لمعرفته بكل (الما قبل) وبالتالي حقه في توقيع (المابعد)...

أما خاتمة الرواية فوُقّعت في:

- زمن محدّد.. "باريس 10 أكتوبر 2015".

- وأماكن مختلفة.. "الجزائر، سيدي بوجنان، وهران، الخرطوم، القاهرة، عمّان، مسقط، الدوحة، بيروت، دبي، أبو ظبي، طنجة، تونس، القدس، رام الله..."

ونراه توقيعا غريبا جدا على غير المعتاد، بذكر 15خمسة عشرة مدينة جزائرية وعربية. لكن، في ضوء النص ذاته نستطيع أن نقول 15مدينة من أرابيا الغربية، الشرقية، الشمالية والجنوبية في آن واحد، إضافة إلى العاصمة الأوروبية الفرنسية باريس التي لعبت هنا دور عين المراقب، ربّما لتمثّل كلّها مجتمعة حالة التقصي والتتبّع التي عاشها الكاتب ركضا بين الهنا والهناك، من

أجل التأكّد من الحقيقة الماضية واكتشاف النبوءة القادمة، دون أن ننسى أن واسيني الأعرج أكثر بني جيله من كتّاب الرواية سفرا وترحالا..

- إشكالية الرواية:

يتحدّد الزمن بدقّة متناهية منذ مطلع الرواية بأول الخريف 22سبتمبر: "أربعة أشهر وتسعة أيام، وثلاث ساعات وخمس ثوان، قبل بدء سنة الموت."(الرواية، ص13) بما يساوي 2084 سنة الموت. ومثله يتعيّن المكان بإحداثيات دقيقة أيضا، ترسم جغرافيته في الربع الخالي من صحراء آرابيا، وبمشهد يصوّر البطل العربي "آدم غريب" على: "أنه العينة الآرابية الأكثر ذكاء التي كبرت بين حيطان جامعاتنا، البقية اليوم، في آرابيا، يتقاتلون على الماء والكلأ وبقايا النخيل المحروق، لسبب تافه، يسحبون السيوف والسكاكين على بعضهم البعض، ويحرقون الدبابات المتبقية من الزمن الماضي من حروبهم، ويمحون آثارهم، منتصرين كانوا أو منهزمين. آدم المسكين لا يعرف أن عصرا انتهى، وحلّ زمن آخر."(الرواية، ص15) وفي ظل هذا المستقبل المظلم المؤذن بنهاية الجنس الآرابي، تبدأ الرواية رحلتها في الزمن المستقبل بين نهاية سنة 2083 باتجاه الدخول في سنة 2084، لتحكي لنا قصة آدم العربي الأخير، صاحب مشروع قنبلة الجيب Pocket Bomb Project، أو قنبلة الجيب النووية PBPu1وPBPp2، أو القنبلة المضادة للإرهاب.

تقدّم رواية "2084 حكاية العربي الأخير" حكاية واقعية باعتبار ما سيكون، خيالية باعتبار ما كان كائنا، كأن تتوسّل بالخيالي وتستعيض عن ذكر أسماء الأماكن والبلدان والمدن بالكنى، على هذا النحو من المراوغة اللغوية التي تنحت مسميات مجهولة من حيث كونها غير مسبوقة، ومعروفة في الآن ذاته لأنها غير مستعصية على القراءة بسبب منطق المشابهة والتشاكل الحرفي/الصوتي الذي اعتمدته، مثل: آرابيا = بلاد العرب، أمانيا = يمن، أراكا = العراق، كياتا = كويت، آرابيا الغربية = المغرب العربي، أزاريا =إسرائيل..

اِنْبَنَت هذه الرواية على مخطط لتحسّس الهوية الآرابية/العربية، أو لنقل ما تبقى منها بغية ابتعاثها من جديد. ورغم حجم السوداوية الطاغية والمبررة في آن، فالأمل باستحداث هوية جديدة لا يزال قائما، تبثّه مؤثرات تتوزّع بين هوية الوطن وهوية الحب؛ الأولى

بخصوصيتها العربية والثانية بشموليتها القلبية. لكن بعيدا عن العولمة الشاملة في الظاهر والمقصية الملغية في الباطن، وفقا للشعار المجحف: "الكل للواحد، والواحد للكل"(الرواية، ص50) أين تدحض المحليات وتمحى الخصوصيات، وتعلن اللاهوية عنوانا.. هناك فقط؛ لا أنا، لا آخر، أو لا شيء بالمرّة...

إضافة إلى ما سبق ذكره، عن كون هذا النص رواية تنبؤية، يمكننا القول بأنّ إشكاليته تكمن في الموازنة بين طرفي معادلة غير متكافئة؛ إنسان الشريحة في مستقبل البرمجيات ضدّ إنسان التاريخ في ماضي الهوّيات. "..إذ كلما خرج المواطن عمّا رسم له، نبّهه الجهاز من خلال الشريحة الذاتية، إلى العودة إلى الطريق المستقيم."(الرواية، ص246) برمجة لا هوية، برمجة شريحة[29] لا علاقة لها البتّة بالإحساس بوطن.. فأيُّ زمنٍ هذا الذي ينتظرنا أو يتوعّدنا -إن صدق هذا التوقع والاستشراف صار نبوءة-؟؟؟

-المشروع التنبئي:

من أهم ما أورده ميلان كونديرا انتصارا لفن الرواية قوله بأن: "السبب الوحيد لوجود الرواية هو اكتشاف ما تستطيع الرواية وحدها اكتشافه."[30] وكأنّ الرواية خرجت من دائرة فن القول إلى رحاب الفعل، ومن ثمّ إلى اكتشاف المجهول المرتبط بتنبؤ المستقبل. "والرواية كانت ولا تزال أبرز الأشكال الإبداعية في التعبير عن الواقع الاجتماعي والثقافي بل والسياسي والاقتصادي للمراحل التاريخية المختلفة، وهي مرجع تاريخي أصدق بكثير مما كتبه المؤرخون المحترفون، حتى ولو لم تكن مرتبطة وبشكل مباشر بأحداث تاريخية."[31] غير أن قدرتها الاحترافية تمكّنها من نسج عوالم متخيلة ترتبط بالواقع وتنفصل عنه في آن، تتنبأ بالمستقبل فتعد بأمل ما أو تخيف من قدر ما.

في هذا المتن تتنبأ الرواية بمستقبل العرب -المكنّى عنهم بالآرابيين- المظلم: "..أفواج الهاربين في كل مكان، وفي كل الاتجاهات، يبحثون عن مأوى لهم، عن قليل من الماء، عن بعض الأكل. المحظوظون يأكلون اليوم أوراق الأشجار وجذور النباتات والحشائش إذا وجدوها، وكل ما تلتقطه عيونهم من زواحف؟"(الرواية، ص53) وحكايات غريبة عجيبة من أخبار الحرب القادمة المسماة بـ'حرب الماء والغذاء'.

ضمن توصيف دقيق لحال آرابيا، جاء على لسان الراوي: "في آرابيا أيضا حروب طاحنة مزّقتها وقتلتها. بدأت بتمزّق محدود، إثني أو قبلي أو عرقي أو لغوي قبل أن يتحوّل إلى حرب عبثية بلا نهاية. داخل هيكل آرابيا، هناك أرابيات، شيعة وسنة، دروز، وأرمن وأكراد وأمازيغ، لم يعترف لهم بأي حق، الباقي يقفون على أرض هشة. الفرق بين آرابيا والعالم الآخر، هي أنّ الثاني على الرغم من العنف هناك إصغاء لحل المعضلات، كما في بلجيكا وسويسرا وإيطاليا وكندا، الهند، باكستان، وفرنسا وأمريكا والصين وروسيا وغيرها. لكن آرابيا لم تمنح فرصة تأمّل وضعها بسبب جنون حكّامها وأطماعهم وإخفاقهم. كلما زادت الحروب كثافة، والفقر توغّلا، أصبح التفكّك سريعا وكبيرا، ومن الصعب التحكم فيه."(الراوية، ص148)

لقد طفت على السطح شبه هويات صغيرة تتمزّق كل يوم أكثر، ومعها تضيع ملامح الهوية العربية الجامعة، وبضياع مقوّمات الهوية المشتركة، ستكون: "..آرابيا التي لم تعد اليوم إلا مزقا لا يحكمها أي نظام، بالخصوص بعد انهيار المكونات الجمعية لآرابيا الإثنية والثقافية واللغوية والطائفية والدينية. كل عاد إلى نظامه القبلي القديم، ولا يعيش الناس هنا إلاّ على التنقلات والبحث عن الحياة."(الرواية، ص177) قريبا من النبوءة الدينية، التي تتحدّث عن علامات قيام الساعة؛ يوم يعود الناس إلى جاهليتهم الأولى. وهنا فقط، تشبه النهايات البدايات، بل وأكثر فجائعية منها، خصوصا بعد قرون من الحضارات، أين سيكون الرجوع القهقرى والسقوط الحرّ مدوّيا جدّا.

يتحوّل الكاتب في هذه الرواية إلى عرّاف ينظر في 'لمبته' (كرته) الزجاجية الخرافية، ويتحدّث بسحر يخترق الآفاق. وإن كان هو نفسه قد اعترف بأن الأمر لا يحتاج إلى عبقرية، بل إلى استنتاجات مترابطة تصل الأحداث بالآفاق. ومثله المتوقّع عن المصير المشؤوم لما يسمّى بدول البترو- دولار: "نحاول أن نبني شيئا عادلا في هذه الرمال القاسية التي لا تنبت فيها إلا الأحقاد والضغينة. انظري بشر آرابيا، يوم كان النفط يتدفق عند بيوتهم ويشترون ما يشاؤون من أوروبا كانوا يستعبدون كل الناس ويحتقرونهم، ماذا بقي لهم اليوم سوى التيه والموت البطيء. ومع ذلك، نظلّ رحيمين بهم لأننا جميعا ننتمي إلى العنصر البشري.(...) الربّ يعطيك القوة لتواصل مهمتك العظيمة. هؤلاء الذين تراهم في تيه الرمال، كانوا بؤساء حتى في عزّ تدفق النفط والمال والبورصات التي صنعت أوراقا وأموالا ولم تصنع وطنا واحدا جديرا بأن

يحترم."(الرواية، ص65) فالويل كلّ الويل للهوية العربية منهم إذا اختزلت فيهم فقط، وهم -إن استمروا على هذا النحو وبقوا ضد أنفسهم- المنتهون لا محالة.

أما اللغة العربية فلن تكون بحال أحسن من حال الناطقين بها، بل إلى ذلك الزمان ستكون غريبة وغير معهودة وفي طريقها إلى الانقراض، بانقراض الجنس العربي أو توحّشه أو ضياعه... لولا بعض الإصرار من قبل العربي الأخير آدم غريب على الاستمرار في الكتابة بها، وهو بدوره يعيش في الدورة الاستداركية لما بين الحياة والموت بفضل حماية "رابطة الدفاع عن حقوق الأجناس الآيلة للزوال،Ligue des Droits des races en fin de cycle LIDRAFIC" باعتباره آخر سلالة العربية (الجيّدة) وقاب قوسين أو أدنى من الموت. وعنه تقول الرواية: "أستغرب كيف لأمريكي أن يصرّ على الكتابة بلغة ماتت من زمان."(الرواية، ص23) ومن هذا التناقض الظاهري المثير للاستغراب يبرز الصراع الداخلي الذي عاشته الذات العربية الجديدة ممثلة في شخصية آدم غريب، ولا يقلّ تجاذبات عن الصراع الخارجي بينه وبين شخصية البطل الغربي الانتهازي والمتسلط، فكل حديث عن الهوية سيستلزم بالضرورة استحضارا لصور الأنا في مواجهة صور الآخر في علاقة جدلية دائمة، تثير الكثير من القضايا المتعلّقة بالائتلاف والاختلاف القائم بينهما، وقد قامت هذه الرواية -متن الدراسة- بالفعل على هكذا ثنائية من خلال صراع الهوية العربية الأخير من أجل البقاء. و"إذا دخلنا 'الغيرية' من عتبة الاختلاف وجدنا أنفسنا في خضم اختلافات لا تحصى ولا تعد:

_الاختلاف المكاني

_الاختلاف الزماني

_الاختلاف العقائدي أو الثقافي

_الاختلاف النوعي (أو الجنسي)"[32] وبالنظر إلى كلّ عناصر المهمّة من الهوية، تبرز رؤية محددّة تسهم في صناعة الآخر وتشكّله في أذهاننا مختلفا مغايرا أو حتّى معاديّا.

صور الآخر:

دأبت الرواية منذ بزوغ فجرها على مقاربة الإشكالية الهوياتية. ويَعدّ الباحث جورج طرابيشي الرواية 'فن الآخر' ويرى: "من وجهة نظر سوسيولوجية صرفة تكاد مقولة "الآخر" أن تكون مقولة مؤسّسة للرواية العربية"[33]؛ حيث الآخر أو الغيرية تعني مباشرة 'الاختلاف'، والذي

تكرّس في أذهان مجتمعاتنا العربية على أنه الاختلاف الذي ما يلبث أن يتطوّر إلى خلاف، يؤدي بالضرورة إلى الممانعة بشكل قاطع ويقيني. وفي هذا الباب رصد الباحث المجري ميكلوس هاداس: "ظاهرة الرفض القائم على الجهل بالآخر كظاهرة منتشرة بين الثقافات."[34] لأنّ في الجهل بالآخر -عن قصد أو عن غير قصد- يكمن بؤس العلاقة، وارتفاع نسبة التأزّم فيها.

وعليه، يرتبط مأزق الهوية بعلاقة الأنا مع الآخر، وتراوحها بين الصراع الممقوت والتضامن المفروض بقيم الشمولية، التي تؤسّس وجودها في العالم في السنوات الأخيرة، وقد ازداد حدّة وتوترا بُعيد تعالي الأصوات الداعية إلى العالمية، بعدما اعتبره العرب رهانا و تحدّيا كبيرين، "إنه بحث عن موطئ قدم واعتراف عالمي بـ 'العرب' أمّة لها خصوصيتها وموقعها في العالم، وفي العصر الحديث. يشعر العرب في كل تاريخهم الحديث أنهم 'أمّة' خارج العصر ولا دور لهم فيما يعتمل فيه. وآية ذلك كل الأحاديث المثارة عن كراهية وتهميش العرب و المؤامرة ضدهم..."[35]

تبدأ أزمتنا مع الغير من "النظر إلى الآخر باعتباره مختلفا يحيل بالضرورة، على التراتب."[36] وفي التراتب يكمن المشكل الكبير بيننا وبين الآخر، واختلاف نظرة كل منا في أحقية الترتيب أولا قبل غيرنا، بسبب قوّة فطرة الانتساب والأنانية الطبيعية التي تنطوي عليها ذواتنا جميعا -دون استثناء تقريبا-. وبحكم تقدّم الغرب على العرب في العصر الحديث، نشأت نظرة غربية متعاليّة جدّا، وفي هذه الرواية تكاد شخصية الآخر-المتآمر الغربي تُختزَل في شخص سيد قلعة أميروبا: الماريشال "ليتل بروز"، وتُسجّل أول ظهور له على النحو الآتي: "تململ ليتل بروز داخل ظله. نظر إلى الشاشات التي تحتل حيطان مكتبه الواسع، في الطابق السابع. تأمّلها واحدة واحدة ليرى عن قرب الوضعيات المختلفة التي كان عليها آدم وهو يتقلب في فراشه."(الرواية، ص14) تسكن شخصية ليتل بروز العلو في الدرجة السابعة، تمتلك القدرة على مراقبة كل شيء، تتابع جميع الحركات والسكنات، دون أن تخفى عليها شاردة أو واردة. لتقفز إلى الذهن مباشرة صورة "الإله" الجديد؛ وهو يراقب من سمائه السابعة عبده الأول والأخير "آدم". الرواية تقلب التاريخ من الحدث الأول لنشأة الخلق إلى الحدث الأخير أو ما قبل الأخير في دنيا سجن غوانتنامو الأمريكي. ومنذ البداية يظهر أنّ شكلا جديدا من الوجود في هذا

العالم بدأ يرتّب دنياه بطريقته الخاصة، ووفقا لقوانينه التي ابتدعها بنفسه، حتى تكون مناسبة لكيانه الجديد وطموحه الجارف في السلطة، بما ينبئ بضياع هويات تراثية كثيرة.

"إن الروائي الذي يستلهم التاريخ رمزا وتورية يريد أن يثأر لنفسه ومن حوله وأن يحاكم حاضرا لا يستطيع محاكمته بغير الفن(...) فمعظم الكتّاب العرب من 'طنجة' إلى 'رأس الخيمة' يراوغون التاريخ ويلعبون مع الجغرافيا ويزيلون الحواجز بين الماضي والحاضر في محكمة الفن التي تخلو من المحلفين والقضاة والأدلة، وتدين على الشهة والمزاج، وهذا ما يشجّع الروائيين على الاستمرار في لعبة الإسقاط التاريخي التي تلعب دورا تنفيسيا يشجعه بعض الأذكياء من الحكّام الذين يتفوقون أحيانا على الكتّاب في فن التحايل والمراوغة، لكن التاريخ يظل إلى جانب المبدع."[37] ولئن كانت الرواية صنعة الروائي وفكره ولغته فإن مطلق الحرية ممنوح له في اللعب وممارسة فن الاحتيال. لأن "طبيعة الإبداع تحثّ على الكتابة والتجاوز، على الخلق والمحو، أما إذا سلّمنا بأن كلّ عدول احتيال، فإنّ الكاتب محتال مهمّ."[38]

تأسيسا على هذه المراوغات الفنية؛ يأخذ 'الآخر' عددا من الصور تتناسل جميعها من الفكرة التي يبنيها الكاتب لها، وأولى تلك الصور؛ صورة سيّد العالم الجديد العنيف، الذي لا يعرف قلبه طريق الرحمة أو التسامح: "ما معنى اليوم ألفاظ رنانة كحقوق، عدالة، مواطن، حرية، حق، نبل، وفاء، سخاء، حقد... مجرد خردة. العالم اليوم للأقوى يا عزيزي. نحن اليوم من يصنع التاريخ الجديد."(الرواية، ص203)

وعلى الرغم من أنّ الآخر ضروري في بلورة تمايز الهوية، إلاّ أنّه يصرّ بأنانيته على البقاء في صورة العدواني، لذلك هو الآخر العنيف الرافض أيضا للاختلاف أو التعايش، كما أنّ مشكلته مع الأنا العربية دائمة ومتوتّرة، تعتقد بأنّ 'وجوده لا يعني بالضرورة سوى إلغاء الآخر إلغاء مطلقا'، فلا نيّة صادقة لدى "ليتل بروز" سوى رفض العربي "آدم غريب" والرغبة في تصفيته كليّا: "هذا اللاست آرابك البائس، سيحرمني من رتبة ماريشال. (...) المهم أن يتم كل شيء خارج القلعة، زمن أسود ويمشي بشكل عكسي. عربي يعلّمنا ما يجب فعله وما لا يجب؟ سأنتحر قبل أن أرى عربيا يحمني أو يأمرني."(الرواية، ص ص437و438)

من الصور التي اتّخذها الآخر الغربي المتمثّل في حاكم قلعة أميروبا - أو السلطة الجديدة لما تبقى من العالم- صورة "الأسطورة"؛ أسطورته الخاصة وأسطورة الغربي الذي لا

يقهر عامّة. يتحدّث هو ذاته عن تغذية 'الأسطورة'، بتلك القصص الخارقة والحكاية المخيفة التي تتجرّد من مظاهر إنسانيتها كالتعاطف في بعض المواقف، أو الإحساس بالخوف في أخرى، أو البحث عن السعادة غاية الأمر. فبعيدا عن كل هذا، يكتب في مذكراته: "يوميات ماريشال في دوامة العزلة، التي بلغ عدد صفحاتها حتى اللحظة 3084. هذا الرقم الذي يتشاءم منه الكثيرون، يخفّف من آلامي وشطحي؟"(الرواية، ص31) والعالم على حافة الانهيار، لا يزال غروره بالخلود قائما إلى ما بعد 100 سنة أخرى. فيها يمارس ساديّته وتلذّذه بتعذيب غيره من العرب -على وجه التعيين-، الذين هم في نظره مجرّد طريدة سيمسك بها، ليصلبها على محور الزمن المشؤوم الذي يتوعّدها.

يعدّ ليتل بروز نموذجا للكيان الغربي الغريب جدا، يرى في نهاية الواقع الإنساني في العالم الذي نعرفه الآن بداية أسطورته في العالم الذي يبنيه من الخراب والشؤم. عالم جديد بالمرة لا يدين بالولاء لتاريخ سابق أو تراث، ويضعه السيد تأسيسا لوجهة نظر تنطلق من إلغاء الذوات المغايرة، التي ما تزال تفكّر في التشبّث بماضيها: "العربي لا يصبح جيّدا إلا بموته. كائن غريب متعلّق حتّى الموت بفضلات التاريخ ولا أعرف ماذا يجني من وراء ذلك. هو يقتل نفسه بحشرها في الموت."(الرواية، ص22)

مع كل هذه السلطة السادية وهذا الطغيان الأسطوري، يتهيّأ السيد/الآخر/الغربي بشرا غير سوي؛ ويرسم الكاتب هذه الشخصية مشوّهة جسديا ونفسيا وحتى عقليا، فـ'ليتل بروز' شخصية معطوبة بكلّ المقاييس، تمارس القهر والانتقام بكل السبل؛ في معركة الرمادي بالعراق فقد العديد من أعضائه، رجله ويده وعضوه التناسلي. وبالتالي، لم يكن في النهاية إلاّ رجلا اصطناعيا أو إلها معطوبا... !!؟ يريد أن ينتقم من التاريخ. كما أوردت الرواية ذلك على لسان بطلها آدم، عندما اتكأ على الحائط القديم. حائط صلاح الدين (Saladin Wall) يتهجّى ما بقي من أثر قديم و يقرأ ما استقرّ في العهد الجديد: "على الجدار الأيمن للمدخل كانت توجد كتابة تعلن انتصار الجيوش العربية على الأرمن والتتار والصليبيين، لكنها محيت نهائيا وكتبت في مكانها جملة شديدة القسوة: في عقر دارك يا صلاح الدين."(الرواية، ص129) عبارة ناقمة كهذه لا يمكنها إلاّ أن تقول أن حرب الهويات أشدّ الحروب ضراوة، فأمّة تغزو أخرى، وتاريخ يمحو آخر. فيما يبدو أن الإنسانية منذ قديم عهدها لم تعرف تاريخا متسامحا متصالحا قط

.. "أنتم تعرفون أن من ليس معنا، فهو ليس ضدّنا فقط، لكنه عدو تجب محاربته، يجب أن يُمحى، لأنه خطر على مسيرة الإنسانية الجديدة التي نبنيها اليوم بكل ما نملك من نار وعقل."(الرواية، ص99)

ببروز الشعار الأمريكي وقد تطرّف أكثر، يصبح الانتقام والدفع إلى الموت سيّد الموقف: "هناك أمم لا تصبح مفيدة إلا عندما تتحوّل إلى رماد. نحن من يمنحها النار وفرصة التحوّل إلى رماد قبل الدخول إلى تاريخ ظلّت على حوافه."(الرواية، ص99) وها هو تاريخ جديد يكتب على الطريقة الأمريكية، طريقة التهديد الصريح والمباشر، الذي يتوعّد الأنا المخالفة وعلى رأسها الأنا العربية، كونها بؤرة النزاعات الدينية بين الإسلام وغيره،إضافة إلى أنها منطقة خصبة للصراعات المالية بين الثروات النفطية والأطماع الشرهة.

صور الأنا:

في العام المطلق، "تبيّن أن صورة الذات القومية 'خاصية ثابتة من خاصيات الثقافة السياسية، وأنه ليس من الجائز تغييرها حتى تحت ثقل الضغوط الحادة'، في حين أن صورة الآخر تبقى ملتبسة وخاضعة أكثر لتأثير العوامل والظروف."[39] إذ ربما يكمن الخلل الكبير في علاقة الأنا والأخر في انعدام الموضوعية في تصوير هذه العلاقة، وجعلها دائما في صورة مشوّهة منفرّة لخدمة أغراض سياسية ضيّقة، يرى أصحابها أنّها الضامن الوحيد لاستمرار سياساتهم الاستحواذية (بطابع المصلحة الشخصية)، والمبنية أساسا على التخويف من الآخر مع الظهور بالمقابل في صورة البطل القومي المدافع عن الهوية. وهو منحى لا تسلكه رواية "2084 حكاية العربي الأخير"، كونها تتبنّى اتجاها ثقافيا قائما على نقد الذات وكشف عيوب النسق الهوياتي، بنظرة موضوعية يروم الكاتب من خلالها تشريح الخلل مع محاولة اقتراح البديل.

وفي هذه الرواية ومقابل (آخر) جبّار طاغية يعتبر نفسه بؤرة مركزية، تكون (أنا) شاردة تائهة على الهامش، تبحث بدورها عن حيّز للتواجد، عن حجة للبقاء، وعن غاية للاستمرار...

ومثلما اتّخذ 'الآخر' مجموعة من الصور تُظهِره في حالاته المختلفة، فكذلك 'الذات'/'الأنا' "و'أنا' لا تعبّر فقط عمّا أكونه الآن! ولكنها تعبّر أيضا عمّا كنته و عمّا سوف أكونه! ذات الشخص هي كيان يمتد زمنيا من لحظة الميلاد إلى لحظة الموت، وهي أيضا ذلك

الكيان الذي يُشكّل هذه الكثافة الوجودية في هذا الموضع من المكان."[40] هي لا تستقر على هيئة واحدة، بل متعددة، لكنها مختلفة تماما عن طريقة التشكّل الغربية، إنّها النابعة من صميم الخصوصيّة العربية، الموصولة بتربتها التاريخية. إذ نجد ثلاث صور لهذه الأنا ترتبط ارتباطا وثيقا بدورة الزمن؛ الأولى تتعلّق بالماضي وقد أدرجناها في صورة 'الأنا التراثية'. والثانية محايثة للزمن الحاضر هي صورة 'الأنا الحديثة'. والثالثة تستشرف المستقبل، لن تكون غير 'أنا النبوءة'. لترتبط كل مرحلة منها بمصير واحد يمثّل في النهاية هويّتها المختلفة؛ إمّا أثناء تقوقعها على كيانها وتجاهلها للآخر، أو الضائعة زمن إثباتها لذاتها في مقابل اكتشاف الآخر الصادم، أو تلك الباحثة من ملامحها لترميم وجودها وصدّ غزو الآخر المتعنّت.

عطفا على ما سبق، ومن خلال تصنيف هذا النص ضمن خانة الحكاية الغرائبية، ستكون شخصية خارقة أو جيّدة وحيدة -كما نعتتها الرواية- هي واجهة هذه الصور جميعا؛ البروفيسور: "آدم غريب". هنا، لنا أن نتصوّر كمّ الدلالات التي سيحملها اسم كهذا، بعد أن أُسندت إليه أدوار سردية /وظائف حياتية كثيفة..!

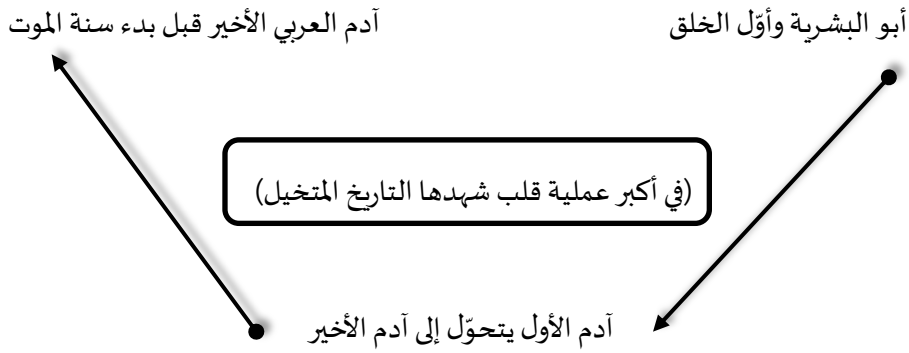

ومصداقا لقول النبي -صلّى الله عليه وسلّم-: "بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء."[41] فقد حفظ الدين الإسلامي اللغة العربية وهي واحدة من أهمّ مقوّمات الهوية الحافظة للوجود العربي واستمراره أيضا، لكنه هو الذي بدأ غريبا بشخص واحد، سينتهي كذلك غريبا وحيدا، من خلال المتبقي العربي الجيّد الوحيد 'آدم غريب'. في إشارة

واضحة إلى قرب اكتمال دورة الحياة العربية أو الإنسانية، من طريق تمام إتمام اكتمال الدائرة التي تبدأ بنقطة واحدة وتنتهي عندها بالضرورة، على شاكلة التمثيل البياني الآتي:

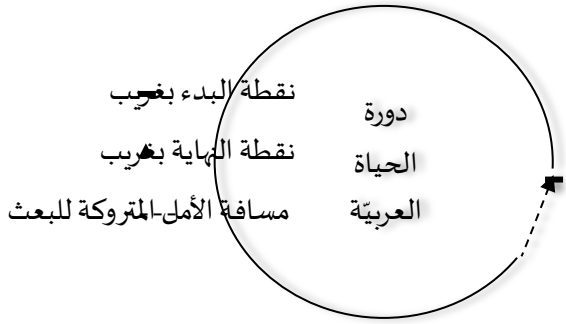

بين الرسم التمثيلي الأول والثاني، يكمن رهان الوجود لآدم غريب، وعليهما معا تقوم إشكالية هويته، هو المالك لسرّ اختلاف البشرية منذ الإنسان الأوّل من جهة، والحافظ للغز الغريب العربي المسلم الأخير من جهة أخرى. وعلى مشارف النهايات القاتمة، أنّى سيكون له البدء من جديد ؟ وكيف سيمكنه العود من بعيد ؟..

قبل الاتجاه المغامر للإجابة على سؤال الهوية المهدّدة، وجب تتبّع ملامحها عبر صورها المختلفة؛ بداية من 'الأنا التراثية'. ولأن نوعية الانطلاق ترسم أبدا شكل الوصول المتوقّع، فسنبدأ بداية جدلية بامتياز، لنقول ما قاله فيلسوف القوّة العابث 'فريدريك نيتشه' في كتابه الثوري (هكذا تكلّم زرادشت): "ليست حكمة العصور هي وحدها ما يسري فينا، بل إن جنون هذه العصور يسري فينا بالمثل... ما أخطر أن تكون وريثا."[42]

إنّ الأنا الآرابية/العربية المختزلة في شخصية آدم هي الذات المهدّدة بالانقراض، رغم كونه في النهاية قد تحوّل إلى عالم نووي أمريكي، وفي الوقت نفسه أصوله "من آرابيا التي لم تعد موجودة إلاّ كتيه رملي."(الرواية، ص ص22و23) لكننا لا يمكن أن ننسى أو نتجاهل ما تعانيه الأنا الماضية من صراع داخلي مرير، مع هويته وتاريخه..؟ "كان يعرف أن أقسى ما يعانيه مسافر التيه، هو الالتفات إلى الوراء."(الرواية، ص121) إنّه كمن يبحث عن حكمته الحياتية الجديدة.

وإن كانت هذه الأنا التراثية هي في نظر الذات العربية ملجأها وحصنها المنيع، فهي في رأي الآخر إحدى أكبر أزماته التاريخية: "مشكلة العربي أنّك أينما وضعته سيمكث في ظلّه الأوّل."(الرواية، ص23) تسرد الرواية لنا كيف أنّ العربي به حنين دائم لنسقه الثقافي الذي تربّت عليه أجيال كثيرة منذ القديم وحتى العصر الحديث، فلا تخرج عنه أو تخالفه، سواء كانت في بيئتها العربية الأصلية أو خرجت منها إلى جغرافيّة أخرى، غير أنها لم تتجاوز تاريخها الذي يسري فيها كسريان الدم في العروق. هذا المشهد المتناقض بين التاريخ والجغرافيا، بين المعطيات القديمة والتأثيرات المعاصرة، أو باختصار شديد بين (زمن الشعر) و(زمن الذرة)، تصوّره الرواية بوضوح عبر شخصية البطل آدم الذي تمنّى أن يكون شاعرا تماما كأسلافه العرب، لكن "وراء كل عالم ناجح، شاعر فاشل هههه ووراء كل شاعر كبير، عالم فاشل."(الرواية، ص81) فلا الظلّ ولا الرماد منعا اللاست آرابيك والعالم الكبير آدم من اقتناص فرصته في هوية متحولة، هوية جديدة بمقتضيات عصر جديد، ربما لا مكان فيه لعنتريات الشعر العربي القديمة / الهوية العربية التراثية، بل لمنجزات علمية مبتكرة / الهوية العربية والكونية الجديدة. ويأتي هذا الكلام في صميم ما يروّج له الكاتب واسيني الأعرج في أكثر مناسبة عند حديثه عن العالمية، التي كما يراها: "ليست ترفًا ثقافيا كما هي عليه اليوم في الكثير من نماذجها، لكنها مقرونة بالضرورة بالدخول في الميراث التخييلي الجمعي البشري. ليست العالمية مجرّد نصّ يُكتب ويترجم إلى العديد من اللغات الأجنبية، ولكنها تغلغل في نسيج الحياة بحلوها ومرّها والقدرة على أسر اللحظة الخاصّة التي تهم الإنسان في لحظة مواجهته بقوّة أقداره الطبيعية أو تلك التي صنعها له البشر لكسر مساراته."[43] وعلى هذا النحو تتّجه مسارات واسيني الأعرج في الكتابة وتزيد من إصرارها في الاستمرار الذي يتطوّر من نصّ إلى نصّ...

وفي النص لن يكون الانتقال من 'الأنا التراثي' إلى 'الأنا الحديث' أو الجديد، إلاّ كالفرق بين العربي القديم التراثي والعربي الجديد الآيل للزوال والمكابد من أجل البقاء في الآن ذاته، أو بين العربي المنقرض والعربي الأخير (أحلاهما مرّ علقم). ولأنّ العرب القدامى أُثِرَ عنهم الإجادة في فن القول: "تكوم آدم على نفسه مثل ثوب عتيق. تذكّر قصائده الليلية التي كتبها في مراهقته. كان يمكن أن يكون المتنبي، أو إليوت، أو شيلّر أو وايتمان أو ملارمي، أو رامبو الذين

شكّلوا وجدانه، لكنّه أخفق في ذلك على طول الخطّ، لأنه عندما كان صغيرا تمنّى أن يكون طبيبا يداوي فقراء الجبل والرمل الذين سيكنون في الخيام يموتون بالعشرات، بالآلاف، وربما بالملايين، ولا أحد يسمع نداءاتهم. ثم غيّر فكرته بأن حلم بصناعة قنبلة كبيرة لا يستعملها أبدا، ولكنّه يهدّد بها كلّ من يعتدي على الآخرين، لهذا كان عليه، كما نصحه معلّموه، أن يحافظ على تفوّقه في الرياضيات والكيمياء والفيزياء، وأن يعمّقها بكلّ ما يملك من طاقة، وينسى كل ما يمتّ للأدب بصلة. مع الزمن نام الشعر فيه لكنّه لم يمت."(الرواية، ص41) نحسّ في كثير من وقفات الرواية المطوّلة مع آدم أنها لا تروي تاريخه الممتد من الشعر والقصائد إلى الكيمياء والقنابل، بقدر ما تعالج مشكلة الهوية العربية وما يقع على عاتقها كحاضنة لجنسها. فآدم لمن لا يعرفه من سلالة شاء لها القدر أن تتوقّف مثل بقية السلالات المنقرضة، أو التي هي تقريبا في طريقها إلى الزوال، إلاّ إذا حدثت المفاجأة..!

لم تخفِ عنا الرواية أسباب الانكسار العربي في العصر الحديث، فرغم تسليط الضوء على شخصية آدم دون غيرها من الآاربيين المتبقين، إلاّ أنها تركت مساحات صغيرة ومكثّفة في آن واحد، تعلّل من خلالها دواعي السقوط، موجزة إيّاها في (معادلة آرابيا القاتلة): "في الأخير فهمت المعادلة التي كانت تبدو لي صعبة. المال والجهل والدين المجزأ يسيرون في نفس المسالك وفي صف واحد. يبدؤون في الظاهر متفرقين، لكنهم في النهاية يلتقون."(الرواية، ص287)

معادلة آرابيا القاتلة = المال (م) + الجهل (ج) + الدين المجزأ (د)

هكذا تذهب الرواية مذهبها في التفسير البعيد لهذه المعادلة -من وجهة نظر كاتبها طبعا- ، بعد أن وضعت في الاعتبار جملة من القياسات لرصد الحالة العربية؛ وصولا إلى استنتاج يرى أنّ (م ج د) أو مجدهم الوهمي القاتل سيكون نذير شؤمهم ومبرر إبادتهم. ولهذه الأسباب اختلف 'آدم غريب' عن الجميع، وعن بني جلدته أيضا، فبرز بوضوح ما يمكن أن نسمّيه 'آخر النحن': "وهو سابق لاكتشاف الوعي، وهو يؤدّي دوره في التصفيات العرقية، وفي الصراعات القبلية، كما يؤدّي دوره كل يوم في العنصرية وعدم التسامح العاديين."[44] وانقسم الصراع على جبهتين مفتوحين في الآن ذاته؛ وبين آخر الغير وآخر النحن، عاش البطل آدم في زمن اللاإنسانية مختلفا عن الجميع ، وغايته المنشودة عودة إنسانيته.

ففي معادلة (المجد) المدمّرة، وقف العربي ضدّ العربي وضدّ نفسه قبل كل شيء، تلك المعادلة التي قتلت آرابيا من الداخل/الذات، قبل أن تتآمر عليها بشاعة الخارج/الآخر. فما من شكّ في أنّ معطيات الماضي الفاسدة، ومؤشّرات اليوم الجارحة هي سبيل أكثر من منطقي لآلام الغد: "نحن في عالم شديد الغرابة. عندما قام العرب بثورتهم كبقية الشعوب قتلوا أنفسهم أولا، ثم أكلوا رؤوس بلدانهم وبعدها خلقوا فراغا ظنّوه هو الديمقراطية ويوم استيقظوا وجدوا أنفسهم، مجموعات يقتلها العطش والصحاري والثعابين، كالعمران الذي شيّد على الرمال، وفي ثانية واحدة انهار كل شيء."(الرواية، ص343) بعد حربي الخليج بدأ الجنس العربي يقتات من الفراغ، واستباح قتل بعضه بعضا، فيما استهوته لعبة الانشطارات (الأكراد، الشيعة والسنة)، أو إمبراطوريات الوهم !! ومن المهم في الحديث عن صراعات الأنا التذكير برأي 'فرويد' "في الفصل الأخير من كتابه (الطوطم والتابو) مبدأ (صراع الجميع ضد الجميع) وتصوّر الإنسان بطبعه الأناني يخدم شهواته وأهوائه ولا يهتمّ إلا بمنفعته الخاصة، إذ يحقّق القول بأن الإنسان هو ذئب الإنسان، (...)فتصير الأنانية مهدّدة لوجود كل فرد. وهنا تتدخل غريزة البقاء لترغم العقل على مسلك جديد يوصل إلى إبرام عقد اجتماعي... ما هو في الحقيقة إلاّ عقد الأخوة بعد ندمهم على قتل أبيهم..."[45] في هذه الصورة البشعة جدّا تمّ اغتيال الإنسانية التي كانت تجمعهم إلى عائلة واحدة تسمح لهم بالعيش معا.

آخر صور الأنا في رواية مكتوبة بحسّ التوقّع لعام 2084، هي صورة 'أنا النبوءة' الحادثة في المستقبل التكنولوجي المتطوّر. وفي مفترق الطرق عند نهاية زمن وبداية آخر، سيظهر إنسان الشريحة (L'Homme à puce) في مقابل الإنسان البدائي المتخلّف؛ "كل شيء أصبح سهلا. اليوم أمرّ عبر المطارات بلا توقّف. أشقّ المعبر بيقين. أمدّ يدي للحلقة المثبتة في البوابة، في ثانية واحدة تقرأ كل شيء. لا جواز ولا أوراق ولا فيزا. يسافر الإنسان غير مثقل سوى بعصره القاسي وشجنه الداخلي."(الرواية، ص91)

يبرز العالم الجديد واعدا بكثير من التسهيلات مضمرا للعديد من المخاطر، في عالم لا هوية له ولا وطن، وكأنّه ملك للبشرية جمعاء..! ولن يكون كذلك أبدا... فهذا ما جنته عليه ثقافته الاستهلاكية السريعة التي بدأت في الظهور قبل مئة عام تقريبا، أي مع نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين، تحت شعار تافه يتكرّر مع عدد من المنتجات

الاستهلاكية: 2×1، 3×1، وهلمّ جرّ... والآن يتوحّد google×1. لا شيء غير الـ: لا هوية، لا خصوصية، لا تمايز، لا اختلاف، بما يساوي: الإقصاء، الانصهار، التلاشي، الإلغاء. "نظامنا و شعارنا الكلّ مع الواحد. لأنّ الواحد هو حامي الكلّ."(الرواية، ص113) الشعار الذي لم يقبله العربي الأخير آدم غريب، وراح "يسأل عمن هو هذا الواحد. فالواحد لن يكون الكل إلاّ إذا اختزل الكلّ بالحبّ أو بالعنف."(الرواية، ص113) والحقيقة أن (لا خصوصية تحت هوية محليّة) في ظلّ (الكلّ في واحد والواحد للكلّ)، لأنها إذ ذاك ستتحوّل إلى "الاستلاب aliénation: حالة الفرد الذي يكون -نتيجة لظروف خارجة عن إرادته، اقتصادية أو دينية أو سياسية- قد انقطع عن الانتماء إلى نفسه أو عن الشعور بأنه المتصرّف في نفسه، فيُعَامَل مُعامَلة الشيء، بل يصبح عبدًا للأشياء، بل عبدًا لنفس إنجازات الإنسانية من الاختراعات الآلية و النُظُم الاجتماعية والأوضاع السياسية التي تثور ضدَّه وتنقلب عليه."[46] لكن حالة آدم غريب تبقى مختلفة تماما، فهي ليست استلابا ولكنها بحث عن هوية جديدة تحاول ما بإمكانها الاستمرار والبقاء. ومن أدلّة ذلك أنّه لم يتخلّى عن اسمه العربي/الآربي، رغم أنّه يعرف يقينا أنّه: "بمجرد أن يحمل المهاجر العربي في بلاد الغرب اسما عربيا يكون بذلك قد رهن نفسه منفيا إلى الأبد. وبالمقابل إذا أراد أن يندمج كليّا في المجتمع الغربي ولا يتحمّل تبعات الإقصاء، ما عليه إلاّ أن يغيّر إلزاما اسمه وهويته."[47]

من داخل قلعة أميروبا أين تمّ احتجاز آدم غريب لحمايته خوفا عليه أو لإبعاده خوفا منه، رُفعت شعارات كثيرة لإقصاء أية فرصة للتأني والتأمل، إقصاء التفكير والتساؤل، إقصاء الاختلاف وحق الاعتراض، وصولا إلى أبعد نقطة في الإلغاء؛ إقصاء الحلم وعدم السماح له بأن يمرّ بالمخيلة إلاّ بإذن:

"امشِ أو متْ.

كثرة التفكير تضرّ بالفكر

من ليس معنا، فهو ضدنا.

أخطر الأحلام، تلك التي لم نسمح بها."(الرواية، ص239)

ويمكننا أن نقرأ اسم 'غريب' كشكل من أشكال المحافظة عليه حيّا دون أثر للحياة، سجين القلعة التي عند حدودها ينتهي العالم ويبدأ الجحيم، وما الجحيم إلاّ اللاشيء والفراغ

الذي هو أشدّ إيلاما من القتل. "إن المهزوم، من وجهة نظر المنتصر، لا وجود له في ذاته؛ لأن وجوده يساوي الاسم الذي اختاره له المنتصر، الأمر الذي يعني، وفي مفارقة ساخرة، أن المنتصر يلغي المهزوم ولا يقتله، ففي قتله اعتراف به أو شيء قريب من الاعتراف."[48]

وفي اللاهوية، يحدث أن يشارف آدم على الضياع، وقد نُبّه إلى أن الانتماء إلى قومية ضيّقة تعود إلى آرابيا الغربية -التي قدم منها ذات يوم- سيكون قاتلا له. فلم يعد مهما أن يكون أمريكيا صافيا، أو عربيا صافيا أيضا، أو عربيا أمريكيا، أو أمريكيا عربيا. وعلى حافة الجنون، تخلص الهوية إلى الاكتفاء بحسابات واحتمالات رياضية..! أو ربما هي 'أنا الشمولية' بدل 'أنا الخصوصية'..؟ لكن "تخيّل في آرابيا أو ما تبقى منها، محا التنظيم كل الماضي الإنساني نهائيا فحطمت ألواح جلجامش أو ما تبقى منها، ومحيت المدن البابلية والرومانية وحتى الإسلامية، على مرأى من المجتمع الحرّ؟ نحن اليوم بقايا بشر بلا تاريخ ولا هوية. والأشد خطورة، بلا ذاكرة إلاّ ذاكرة الطائفية القبلية والحارة التي لا تقاوم الزمن أبدا ورياحه."(الرواية، ص274)

لكن، وأثناء التيه في صحراء تأكل تاريخها لتصبح بلا هوية، يتذكّر آدم/العربي/الأمازيغي/الجزائري، ابن الجبل وسليل الذئب رماد وصية والده الأخيرة له: "أكبر كما يكبر الرجال على هذه الأرض الصلبة بتربتها ونارها وخوفها، والسخية ببحرها ورمادها وخيرها، ومتْ أيضا كما يموت ذئابها، بحرية ورفعة رأس وانتصار للمظلوم."(الرواية، ص120) فيؤكّد على هوية عميقة راسخة في زمن التحوّلات الجذريّة الكبرى، هوية خاصّة رغم الشمولية بكل ما في الإقصاء من المعاني المفروضة قسرا. وبهذا يبقى آدم كما كانت زوجته أمايا تخبره دائما بأنه قد يكون أمريكيا ولكنه لايشبههم، فهو من آرابيا أو من إنسانية آيلة للزوال، وقد تكون مصرّة على البقاء بأفضل ما عندها من قيم. وتلك آمال الرواية الموعودة في العقل الباطن للكاتب رغم سوداويتها القاتمة في الظاهر.

آدم هو أنا القديم جدّا، والمستمر حاضرا، والباحث عن الاستمرار مستقبلا. آدم الخلق الأول والعربي الأخير في آن واحد: "أنا آدم، القليل منكم يعرفني أو سمع بي. اختزلت كل شيء في اسمي ومساري. حملت رماد الجنة وحُطام امرأة لم أعرفها إلا قليلا، وغادرت المكان بخطى حثيثة، يوم انتصر الشيطان واستولى على العرش كلّه الذي أراده منذ بدء الخليقة. لم أكن في حاجة لأن أُطرد، فقد طردت نفسي ورميتُني من الأعالي وتركتُني أهوي كورقة جفّفها الزمن

وأثقلتها قطرات المطر. وحيد في فراغ كون لم يجد من يديره. لا سلطان لي سوى أن أحلم بلا توقف لأستمر في العيش في قفر لست من خلقه."(الرواية، ص57) بيد أنّه لكل زمن شيطانه؛ فإن كان شيطان الزمن الأول هو إبليس، فشيطان هذا الزمن الأخير أو زمن القيامة هو أمريكا، وما بين الزمنين المتباعدين كان آدم الأول والأخير هو الضائع والباحث والمرمّم لذاته، وهناك تكمن نبوءة البعث.

تؤسّس رواية "2084 حكاية العربي الأخير" لواسيني الأعرج لعلاقة مختلفة بين أنا والآخر، بنموذج متباين كليّا عن السابق، فيه يعيش الأنا والآخر في تصالح. حين لا يكون هناك مانع من اختلافنا، ما دامت الإنسانية أصلنا جميعا. وتعطي الرواية مثالا حيّا عن آدم وأمايا، فبين العالم النووي الذي اختاره هو، والعالم الإشعاعي الذي انتمت إليه هي ... عالمين من منبع واحد، وباتجاهين مختلفين جدا. لكن، الرواية بطبيعة الحال والمنطق لم تُخرِج من حسابها علاقة العداء اللاإنساني بالمرّة، بسبب خوف الطرفين من بعضهما البعض، فالأميروبي يرى كل آرابي إرهابي حتى يثبت العكس، وهذا الأخير يرى السابق عنيفا وعنصريا، ومن هنا تبدأ العلاقة الشائكة المفتعلة، لتنتهي في أغلب الأحيان بخراب كليّ للأنا والآخر معا، وخسارة الأوطان وخسارة الإنسان.

اشتمل هذا النص الروائي -في تقديرنا الشخصي- على خطّتين اثنتين؛ خطة أساسية تحكي قصة معاناة وتيه الأنا، وخطة بديلة تروي خوف الآخر ومعاناته أيضا، برؤيتين من زوايتين مختلفين باختلاف الرائي وسنده الثقافي، ممّا سيمنح الكتاب عنوانا ثانيا، نتوقعه أن يكون:

الخطة البديلة		الخطة الأساسية
"يوميات مارشال في دوامة العزلة"	/في مقابل/	"حكاية العربي الأخير"
عنوان الآخر		عنوان الأنا
(الخائف)		(التائه)
عالم غربي في عز انهياراته وأزماته		عالم عربي فقد كل مبرراته الإنسانية

جينيولوجيا الهوية[49]:

من عوالم الصحراء والتيه والتعب يطلع 'آدم غريب'، منتشلا ما تبقى من هويته قبل الرحلة الأخيرة نحو نهاية النهايات: الموت. وأثناء هذه المسيرة القصيرة إذا قيست بالنهاية، والموغلة في القدم إذا قيست بالبداية، يحفر آدم عميقا بأسئلته الإنسانية في جينيولوجيا الهوية، كاشفا عن نوعين من التواجد رسّخ بهما الكاتب حق العيش للجنس الآاربي؛ هما التواجد الطوطمي والحضور الديني. هذا الأخير الذي عزّز التناص التجريبي للرواية الجديدة ومنحها مساحات تأويلية شاسعة هي حياة على حياة. ولا تبتعد الطوطمية[50] بأنساقها الثرية عن الأجواء الدلالية المفتوحة نفسها، إذ ارتبط وجود 'آدم' في الرواية بالوجود المتخيّل لذئب يسمّيه 'رماد'، ولم يكن من منقذ له من مخالب الموت في النهاية إلاّ هو.

هناك علاقة خارجية تقيمها الرواية مع أكبر النصوص الإنسانية ثراء، من حيث الأحداث والتشويق والروابط المنطقية واللامنطقية، خصوصا مع التاريخ القديم جدا؛ حيث الأساطير جزء لا يتجزأ من حياة البشر اليومية، وهي هنا تعزّز اعتقادنا بأنّ الهوية الطوطمية عملت عملا سلطويا داخل هذا المتن العجائبي. كما يمكن اعتبار الأسطورة أُول مظاهر التفكير الفوقيّ عناية بالغريب العجيب و توظيفا له على الإطلاق، ربما لأنها تقوم على أساسه ولا تتمايز عن غيرها من تجليات التفكير إلاّ به. "إنّنا لا نقرأ الروايات لأنّها تمنحنا إحساسا بالطمأنينة على أنّنا نعيش داخل عالم لا يمكن التشكيك داخله في مقولة الحقيقة، في حين يبدو العالم الواقعي أكثرا مكرا. إنّ هذا الامتياز الاليتي (aléthique) للعوالم السردية يساعدنا على ابتكار معايير لمعرفة ما إذا كانت قراءة نصّ سرديّ تتخطّى ما سمّيته 'حدود التأويل'."[51] وعليه؛ يبدو لنا أن مصطلح الأليتيك يليق جدّا بالرواية كفن مراوغ، يقود النصّ بغرور نحو تأويلات لا حصر لها: سياسية، أيديولوجية، أنثروبولوجية، بسيكولوجية، أسطورية،....

سبقت الإشارة إلى كون رواية واسيني هذه تنطوي على حكاية خرافية تحكي قصّة الشبه بين 'آدم' الإنسان و'رماد' الذئب. بل يكاد يكون طوطمه ورمز سلالته الروحية التي ينحدر منها في آرابيا الغربية، ربما لأنه ابن الجبل. والطوطم عادة ما يرتبط بالجغرافيا التي ترسم تضاريسها ملامح البشر: "منذ مائة سنة والذئب رماد يركض بلا تعب ولا نهاية، مخترقا هذه الجبال، وهذه التلال كرياح شتوية. أصبح يقرأ عنف الأشياء من حركة الأوراق واهتزاز الشجر ورعشة القمر."(الرواية، ص17)

فلآدم حاسة ذئب، يتحسّس الأشياء قبل حدوثها. إنه ينتمي إلى طوطمه 'رماد' وقصّتهما متشابهتان: "كل سلالته ماتت وبقي رماد في مكانه (...) لا أدري أنا العربي الوحيد كما يسمّونني هنا، The Last Arabic ماذا يفعل بي رماد وهو الذئب الأخير في سلالته."(الرواية، ص ص18و19) لكنه لم يكن مجرّد طوطم هندي، لقد صار الإله الذي يرعى نسله، فهم منه وهو منهم. "إلاّ أن المرء يميل إلى الاعتقاد بأن دور الطوطم (الحيوان) كأبّ أول يعتبر على درجة كبيرة من الجدية. فجميع من ينحدرون من الطوطم نفسه يعتبرون أقرباء بالدم ويعدّون من أسرة واحدة."[52]

إنّ الطوطمية بعيدا عن كونها ديانة أرضية بدائية -لن نخوض في سلامة معتقدها من عدمه- هي فكر أنثروبولوجي متغلغل في الوجود الإنساني لجلّ شعوب العالم. فلا غرابة في أن يبحث آدم الإنسان الأوّل والعربي الأخير عن خَلاصِه عبر الاستنجاد بطوطمه، لكن الغريب يكمن في أنّ طوطمه غير طوطم العرب جميعا، وكأنّه أراد أن يقول أنّ 'العربي الأخير ليس هو العربي التراثي': "لا أدري من أين جاء بهذا الذئب الذي يسمّيه رماد، ويقول عن نفسه إنّه ينتمي إليه، وإنّه من سلالته، ويشعر بقربه الغريب. في هذه أيضا يختلف عن بقية سكان آرابيا الذين كانوا يرون الجمل والحصان نموذجهم."(الرواية، ص19) وللذئب دلالات كثيرة في الأساطير والقصص الديني والحكايات والأمثال الشعبية.[53]

وغير بعيد عن الفكر الطوطمي المتوسل بالحيوان رمزا، يطلب 'آدم' في سجنه/إقامته في قلعة أميروبا رفقة، ستكون هي السلحفاة 'حواء' رمز المقاومة والاستمرار تحمل سكنها، أرضها، ووطنها، تحيا بهم وتموت بهم. "ليكن العالم هكذا، غلط في غلط، أنتم تحرقون الحياة ونحن نعيد زرعها إلى أن تملوا أبدا. شعاري السلحفاة. تطردونها، تسكن بيتها. تطلقون عليها السموم، تتخفى إلى أن تعبر، تفجرون الأماكن، تقاوم. لا تستسلم لأي موت."(الرواية، ص44) من غير البريء أبدا أن يختار صانع النص لبطله 'آدم' أنيسة لوحشته ورفيقة لاغترابه تدعى 'حواء'، إلاّ ليقول لنا إن القصدية أساس الكتابة وإن كانت تنبؤية استشرافية. فلا شيء متروك للصدفة هنا، في هذا النوع من الكتابات التي تحمل مشروعا ما، كمشروع الهوية وإثبات الذات، الذي يستقصّى واسيني الأعرج مراحله المختلفة عبر مدة غير يسيرة من عمر الإبداع لديه، كما تمت الإشارة إلى ذلك في محطة سابقة من هذا البحث.

كان الذئب طوطم سلالة 'آدم' المحلية وأسطورة بعثه الخاصّة، "بقايا الأسلاف أنت. أنت دوما أنت، ذئب البراري والأعالي، والهضاب والتلال، ذللتَ الخوف وأنت تعرف أنه لا خيار لقلبك، إمّا أن يكون أو لا تكون. ويدرك أنه يجب أن تكون وإلاّ سيكون قد خسر الذاكرة وموعدا كبيرا مع الحياة. تستحق أن تكون حرّا يا رماد. تستحق أن تكون ريحا ولمسة فجر. تستحق أن تكون عطر إله."(الرواية، ص46) رماد يقظة قلبه وروح سلالته وأصل هويته، فإمّا أن يكون (رماد) أو لا يكون (آدم). "الطوطم ذو علاقة خصوصية مع العشيرة بكاملها. فالطوطم هو أولا الأب الأول للعشيرة، ومن ثم الروح الحامية لها، والمعين الذي يرسل لها الوحي، والذي إذا كان خطرا يعرف أبناءه ويصونهم. ولأجل ذلك فإن أبناء الطوطم يخضعون لالتزام مقدس."[54] ولقد وهب الذئب رماد حياته نظير محاولة أخيرة لضمان استمرار السلالة، عندما وهب حياته لآدم، وبالمقابل كنا نلاحظ ونحن نتتبّع تقديس آدم له وتصديق رؤيته دون الناس جميعا، لأنه وحده يخضع لبنود الالتزام المقدّس بحكم الانتماء إليه طبعا.

رماد = رمز السلالة = هوية الأنا = بعث آدم

هكذا، يصير 'رماد' رمزا لإمكانية الاستمرار وقدرة البعث من جديد، تماما كما تؤكّده الأساطير القديمة من فينيق أو عنقاء أو غيرهما ممّا يبعث من رماده، وبه ومعه ومنه يكون خلق جديد أو إمكانية بداية أخرى جديدة.

وإلى جانب الحسّ الطوطمي، كشف الفحص في جينيولوجيا هوية رواية "2084" عن حضور تناصي ديني صريح حينا وضمني حينا آخر، تختزله مجموعة من الأحداث بغرابتها أو المواقف والشخصيات برمزيتها أو الأمكنة بفانتازيتها.[55] حيث نجد الباب مفتوحا على مصراعيه؛ يروي تفاصيل النبوءة الدينية، منذ بدء التكوين وقصّة خلق سيدنا آدم -عليه السلام- ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين(34)﴾[56]. وصولا إلى قصّة نهاية العالم وعلامات قيامته الصغرى والكبرى؛ من مثل قصّة الردم أو السد الذي يفصل بيننا وبين يأجوج ومأجوج، أو بين حياتنا وقيامتنا -في النص القرآني-. قال تبارك وتعالى: ﴿حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا(93)قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدّا(94)قال ما مكّنّي فيه ربّي خير فأعينوني بقوّة أجعل بينكم و بينهم

ردما(95) آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا(96)فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا(97)قال هذا رحمة من ربّي فإذا جاء وعد ربّي جعله دكّاء وكان وعد ربّي حقّا(98)وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا(99)﴾[57] وما يقابله صراحة من حادثة دك حصن قلعة أميروبا المنيع: "فجأة، بالضبط على الساعة 22h17m7s، دوي انفجار قوي اهتزت له أركان القلعة وانكسر زجاج العديد من الأبواب والنوافذ ومداخل القلعة الأربعة. على الساعة 22h26m3s دوى انفجار ثان فعلت ألسنة النار... كان أقوى من الأول اهتزت له كل أركان القلعة. لكن ضوء القلعة لم ينطفئ."(الرواية، ص386) وفي هذه الوقفة المشهدية يختزل الراوي قيامة العالم في انهيار القلعة العتيدة، لكن مع الإبقاء دائما على الأمل قائما. أ و ليست النهايات مطية البدايات والعكس صحيح ..؟

من صميم التناص الديني تورد الرواية مجموعة من القصص ذات الحمولة الدلالية الكبيرة والشحنة الرمزية التأويلية المتنوعة؛ من مثل دلالة السفينة، وما يذكره النصّ عن السفن الراسية في الخليج العربي والبحر الأحمر ومضيق هرمز، وكأنّي بها سفن النجاة التي تلمّح برمزيتها المتخيّلة إلى رمزية سفينة سيدنا نوح -عليه السلام- الحقيقية. ثم تسرد أحداثا رهيبة عن ابتلاع مياه السد للحجر والبشر والحيوان. "عندما فتح عينه اليمنى للمرة الأخيرة رأى قتالا عنيفا ليس بعيدا عن حواف السدين. النجمة التي كان رآها واضحة من قبل تمزقت نهائيا. الأحصنة التي هربت نحو الماء غرقت بأصحابها.. لم تكن عين ماء كانت سدا كبيرا. رأى الرايات تتمزّق إلى ألف قطعة. مياه الوادي أصبحت حمراء، وبقايا الدواب التي وردت إلى المكان، هربت في كل الاتجاهات والأدخنة. بعضها تخبّط طويلا قبل أن يستسلم للتيارات المائية التي سحبته نحو الأعماق. كل شيء كان يؤكّد لها مرة أخرى أن الحياة انتهت هنا أيضا."(الرواية، ص455) في مشهد يعيدنا سريعا إلى حادثة الطوفان وقصّة البعث الإنساني، التي بدأت مع نوح أب البشرية الثاني، قال تبارك وتعالى: ﴿قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلاّ من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين(43) وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين(44) ﴾[58]

تغرق الرواية أحيانا في جو سريالي مليء بالماورائيات، تستحضر بعد تأويل تلميحاتها كثيرا من غيب الماضي بتاريخه وأساطيره وغيب المستقبل بنبوءاته ومخاوفه، فيأتون دفعة واحدة: "صعد رماد على الصخرة الرمادية العالية التي أصبحت حمراء من كثرة الدم الذي ساح عليها وبدا واضحا على الثلج."(الرواية، ص458) ثمّ لا يملك القارئ المثقف المفكّك بدّا من أن يتماهى مع الحدث، فيتصوّر نفسه واقفا على صخرة هابيل في جبل قاسيون بدمشق عاصمة سورية، متخيّلا حادثة تقاتل ابني آدم قابيل وهابيل. فثمّة تاريخ يعيد نفسه بطريقة ما، وقد يعود إلى نقطة البدء من جديد..!

نتيجة، نقول: لم تكتف هذه الرواية الكثيفة الشائقة بإثبات وراثتها الطوطمية فحسب، بل تعدّتها إلى مقوّم آخر أكثر رسوخا في الطبيعة الإنسانية العربية -على وجه الخصوص- ألا وهو الدين بمفهومه العام ومعتقده المطلق. كل ذلك في سبيل توطين هوية آدم، واسترجاع أرضه وإسكانه إيّاها مرة أخرى.

خاتمة:

تجدر الإشارة إلى أن واسيني الأعرج في هذه الرواية كمن يكتب سيناريو لفيلم سينمائي على الطريقة الأمريكية؛ حيث التشويق، الدقّة، التهويل، الخيال العلمي المجنّح، الأحداث المفزعة الكبيرة، الأجناس البشرية المختلفة والمتداخلة،...[59] هذا النص بعبارة أخرى هو بعض من تنبؤات، وبقايا هوية. ومزيج من خيال علمي وتخييل أدبي. يؤكّد في النهاية على أنّ "الناس يخطئون إذ يظنون أن الغنى والقوة خالدان. كل شيء أكثر هشاشة من جناحي فراشة. البشرية تحتاج إلى تذكير دائم بضعفها."(الرواية، ص173) إنها حكمة الرواية وموعظتها التاريخية التي ستشهد بها ثقافة الهوية العالمية والمحلية على حدّ سواء، بمنأى عن أي صراع.

لقد كلّفت النظرة المبتورة والحذرة المركبّة في أذهان الأنا والآخر الإنسانية الكثير، ولتجاوز ذلك وجب مقاومة هذه الصور، غير أن الباحث فهمي جدعان في كتابه 'الإسلام وأوروبا، الثقة المفقودة' يتحدّث عن "عقبات عديدة تقف أمام أي محاولة لتجاوز الصور المذكورة، يعدّد الكاتب منها: أ-الذاكرة التاريخية المشحونة بمجموعة من الوقائع والتناقضات التاريخية، الاستعمار الأوروبي، السيطرة على الثروة العربية، استمرار الاستعمار الاستيطاني في فلسطين، إلخ... ب-أما العقبة الثانية فهي تحيل إلى المتخيل الديني، حيث يوضع تقابل حاد

بين الإسلام والنصرانية، تقابل غذّته الحروب الصليبية واسترداد اسبانيا، والإجهاز على الدولة العثمانية. ج- وهناك عقبة ثالثة أيديولوجية، تتمثل في النظر إلى الإسلام باعتباره مناهضا للحداثة، وفي إطار هذه العقبة الأيديولوجية تتولّد وتنشأ عقبات قيميّة تنفي عن عالم الإسلام الحرية، وتسم تاريخه وحاضره بالعبودية والبربرية والتأخر."[60]

كما للقمر وجهان منير ومظلم، كذلك هي العلاقة مع الآخر إيجابية وسلبية، مضرّة ومفيدة،...: "وبالفعل، لقد أصبح الآخر في عالمنا هذا، وفي عصرنا هذا، عنصرا مكوّنا لهوية الذات وشرطا لغناها وتقدّمها إلى درجة يصحّ معها أن يُقال إن رفض الآخر يعادل موت الذات."[61] وهو ما يجب أن ينطبق في الجهتين سواء كان الآخر هو الغربي من زاوية العربي أو العكس، أي الآخر هو العربي من زاوية الغربي. لقد صارت مسألة الجدلية الدائرة بين الأنا والآخر رغم صراعها الموغل في القدم، "تكتسب راهنية في أيامنا هذه تحديدا، بالنظر إلى أن شعارات رفض الآخر عادت تكتسح الساحة السياسية والثقافية، هناك في 'الغرب' تحت لواء العنصرية، وهنا في 'الشرق' تحت لواء الأصولية، وفي الحالتين كلتيهما صدورا عن مركزية أنوية عصابية وافقارية متشبثة بمفهوم سلبي عن الهوية المؤسّسة على كراهية الآخر ونفيه."[62]

تتميّز رواية "2084 حكاية العربي الأخير" برؤية نقدية ثقافية بامتياز تحاول تفكيك خلل النسق العربي والغربي معا، وتكشف بعمق عن أخطائهما الفادحة، والتي وإن تعدّدت فيها الأسباب والدوافع؛ بين دافع عنصري أو دافع أصولي فالنتيجة كانت واحدة، بالموت تحت ظلّ: مركزية أنوية وآخر مكروه منبوذ. إننا لنعتقد بتميّز الرواية إلى حدّ بعيد، ليس من أجل نيل شرف التنبؤ بمصير قاتم، ولكن للأخذ بأسباب البعث من جديد. فهي وإن عدّها كثير من الدارسين رواية سوداوية، فهي غير مغلقة تماما، تنبؤية ومفتوحة عبر فسحة أمل، تنبيهية قبل فوات الأوان -أو هكذا نتصوّرها-. إضافة إلى أن هذا النص الروائي، والذي قدّم استبصارا للهوية العربية، يكون قد شارك بطريقته الفنية في التوعية والتنبيه إلى مصير مظلم يجب تدارك مسبباته تفاديا له، فهو تنبؤ وتوقّع يأمل النص -في حقيقة الأمر- عدم الوقوع في شَرَكِه. "ما يزال في هذا العالم الضيق والرمادي متسع لشيء اسمه الأمل. الأجدى بنا التعلّق بالأمل وحتى عندما نخسره نهائيا، نعود ابتداعه."(الرواية، ص194)

ورغم أنّ كل المؤشرات أجمعت على انقراض السلالة الآرابية بموت 'آدم' آخر العرب الجيدين، وعلى نهاية البشرية كافة، وفي زمن الظلمة التاريخية ومن رحم الاغتراب الإنساني،

بُعث الأمل في المعادلة التي تعيد مزج كيمياء العالم من جديد، من الحرائق والرماد حتّى تستمر الحياة... من 'آدم' الإنسان الأول و"أبي الأنبياء"، إلى 'آدم غريب' العربي الجيّد الأخير و"سيد السلام". بعد أن خاض جولات كثيرة بين الموت وأمل البعث، بحيث استطاع أن يتحكّم في الإشعاعات الخطيرة الناتجة عن استعمال الأسلحة الفتّاكة، ويفوز بجائزة نوبل للفيزياء ضدّ كلّ من يهدّدون السلام العالمي والإنسانية. لنستنتج بأنّ كلّ ما أرادت الرواية قوله: على العربي الأخير الموعود بالبعث والمعدّ للحياة من جديد أن يكون جيّدا بحقّ.. وهنا يكمن موضوع القيمة لهذا البرنامج السردي. "اعتبر نفسك العربي الأخير وعلى ظهرك مسؤولية إعادة بعثهم من جديد."(الرواية، ص250) أخالها أطروحة البعث الجديد، التي يدافع عنها الكاتب في هذه الرواية، في محاولة أخيرة للانتصار على العنوان ودحض مزاعمه، وعبر بث أمل الحياة من قلب الحرائق والرماد بانصهار البدء والمنتهى، داخل هوية إنسانية لا تمحو تمايزنا. كما أنّه ما من مناص في زحمة الدفاع الشرس عن مقوّمات الهويّة أن نتذكر أنّ الآخر مرآتنا.

الهوامش والإحالات:

1- مصداقا لوله تعالى: ﴿فإذا هو خصيم مبين﴾ (سورة النحل، الآية4)

2- واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير(رواية)، موفم للنشر-الجزائر، 2015.

3- صدوق نور الدين: ميلان كونديرا علامة في الرواية ونقدها، جريدة الشرق الأوسط، 8مارس2006، العدد9962، www.archive.aawsat.com

4- المنجد في الأعلام، دار المشرق و المطبعة الكاثوليكية بيروت-لبنان، الطبعة الرابعة عشرة 1986، ص40.

5- فيصل دراج: الرواية وتأويل التاريخ -نظرية الرواية والرواية العربية-، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء-المغرب/بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 2004، ص367.

6- المرجع نفسه، ص367.

7- حفيظة هواري: المرأة وجه من وجوه الآخر في الأدب المغاربي المذكر: الرواية الحديثة: كتابة الآخر والهناك -وقائع ملتقى دولي-، تحت إشراف: محمد داود، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران 02-03نوفمبر2002، منشوراتCRASC 2006، ص23.

8-" Il faut donner au-delà de ce que l'on est, se transformer au-delà de ce qu'on peut anticiper, se laisser vraiment convertir, accepter que l'autre m'affecte au point que je ne m'y retrouve plus, au point que la réappropriation de mon être ne soit plus assurée et donc que je puisse être mis en danger. Le risque le plus grave touche à ma propre identité.: "Touriaya Fili-Tullon : L'écriture de l'atérité dans le polygone étoilé de Kateb Yacine. والهناك -وقائع ملتقى دولي-، ص51 الرواية الحديثة: كتابة الآخر

9- ينظر: مجموعة من الباحثين: صورة الآخر -العربي ناظرا ومنظورا إليه-، تحرير: الطاهر لبيب، ، مركز دراسات الوحدة العربية، الجمعية العربية لعلم الاجتماع، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، آب/أغسطس1999، ص22.
10- واسيني الأعرج: كتاب الأمير -مسالك أبواب الحديد-(رواية)، دار الآداب-بيروت، الطبعة الأولى 2005.
11- المصدر نفسه، ص الغلاف الخارجي الأخير.
12- واسيني الأعرج: سيرة المنتهى -عشتها.. كما اشتهتني- (رواية سيرية)، كتاب 'دبي الثقافية' 117، دار الصدى-دبي، الطبعة الأولى نوفمبر2014.
13- المصدر نفسه، ص6.
14- واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص6.
15- المصدر نفسه، ص464.
16- إنّها الأمركة -باختصار شديد-.
17- واسيني الأعرج: هل من الضروري أن يركض الروائي وراء أبطاله؟، حواره مع القدس العربي بتاريخ 2017/06/21.
18- نضال الشمالي: الرواية والتاريخ -بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية، عالم الكتب الحديث إربد-الأردن، جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، ط2006/1، ص149.
19- المرجع نفسه، ص105.
20- ماجد المذحجي: التاريخ يتكلم باسم عبد القادر الجزائري -كتاب الأمير- لواسيني الأعرج، الحوار المتمدن، 2005/12/9، www.m.ahewar.orgwww .
21- الرواية والتاريخ (دورة عبد الرحمن منيف)، ملتقى القاهرة الثالث للإبداع الروائي العربي 2005، سلسلة أبحاث المؤتمرات/18، الجزء الثاني، المجلس الأعلى للثقافة، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية القاهرة، 2008، ص117.
22- جورج لوكاتش: الرواية، ترجمة: مرزاق بقطاش، سلسلة المكتبة الشعبية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، دت، ص78.
23- إيان واط: نشوء الرواية، ترجمة: ثائر ديب، دار الفرقد سورية-دمشق، ط2008/2، ص ص15و16.
24- المرجع نفسه، ص ص23و24.
25- واسيني الأعرج: 2084 حكاية العربي الأخير، ص الغلاف الخارجي الأخير.
26- حوار واسيني الأعرج في برنامج 'ضيف ومسيرة'، قناة France24، المذاع بتاريخ: 24جوان2017.
27- الرواية الحديثة: كتابة الآخر والهناك -وقائع ملتقى دولي-، ص24.
28- حوار واسيني الأعرج في برنامج 'ضيف ومسيرة'، قناة France24، المذاع بتاريخ: 24جوان2017.
29- معتقدات البرمجيات = لا عقائد لا ديانات، أ وليس الدين أحد أهم عناصر ومقومات الهوية، لقد ضُرِب كبقية المقومات الأخرى وعلى رأسها اللغة.
30- صدوق نور الدين: ميلان كونديرا علامة في الرواية و نقدها، www.archive.aawsat.com
31- الرواية والتاريخ (دورة عبد الرحمن منيف)، ملتقى القاهرة الثالث للإبداع الروائي العربي، ص295.
32- الرواية الحديثة: كتابة الآخر والهناك -وقائع ملتقى دولي-، ص24.
33- جورج طرابيشي: هرطقات -عن الديمقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية-، رابطة العقلانيين العرب، دار الساقي، بيروت-لبنان، الطبعة الثالثة 2011، ص157.
34- مجموعة من الباحثين: صورة الآخر -العربي ناظرا ومنظورا إليه-، تحرير: الطاهر لبيب، ص31.
35- سعيد يقطين، محمد القاضي: رهانات الرواية العربية بين الإبداعية والعالمية، سلسلة رؤى ثقافية(1)، الرياض، الطبعة الأولى 2011، ص ص 175و176.
36- مجموعة من الباحثين: صورة الآخر -العربي ناظرا ومنظورا إليه-، تحرير: الطاهر لبيب، ص21.

37- الرواية والتاريخ (دورة عبد الرحمن منيف)، ملتقى القاهرة الثالث للإبداع الروائي العربي، ص ص558و559.
38- ينظر: السعيد بوطاجين: السرد ووهم المرجع –مقاربات في النص السردي الجزائري الحديث–، سلسلة كريتيكا، منشورات الاختلاف، ط2005/1، ص64.
39- مجموعة من الباحثين: صورة الآخر –العربي ناظرا ومنظورا إليه–، تحرير: الطاهر لبيب، ص23.
40- ماجد موريس إبراهيم: سيكولوجيا القهر والإبداع، دار الفارابي بيروت–لبنان، الطبعة الأولى 1999، ص25.
41- رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة. والمقصود بالغرباء أهل الاستقامة الذين يصلحون عند فساد الناس، إذا تغيرت الأحوال والتبست الأمور.
42- ماجد موريس إبراهيم: سيكولوجيا القهر والإبداع، ص25.
43- دبي الثقافية، السنة الحادية عشر، ع (113)، أكتوبر (تشرين الأول) 2014م، رئيس التحرير: سيف المري، دار الصدى–الإمارات، ص101.
44- ينظر: مجموعة من الباحثين: صورة الآخر –العربي ناظرا ومنظورا إليه–، تحرير: الطاهر لبيب، ص21.
45- محمد علي العجيلي: الأخلاق عند فرويد –دراسة تحليلية ونقدية–، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر دمشق–سورية، الطبعة الثانية 2007، ص240.
46- مجدي وهبه، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية، مكتبة لبنان–بيروت، الطبعة الثانية 1984، ص31.
47- Fouzia Bouguebina : Le roman beur entre l'identité et l'altérité
الرواية الحديثة: كتابة الآخر والمناك –وقائع ملتقى دولي–، ص42.
48- عبد المالك أشهبون: العنوان في الرواية العربية، السلسلة النقدية، النايا للدراسات والنشر والتوزيع، محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع دمشق–سورية، الطبعة الأولى 2011، ص111.
49- علم الأجيال والأنساب أو علم الوراثة.
50- الطوطمية ديانة أرضية تعتقد بها الشعوب البدائية كالهنود الحمر في أمريكا وسكان الأدغال في إفريقيا، وتعتقد بأن لكل سلالة بشر حيوان تنتمي إليه، وهو إلهها في الآن ذاته.
51- [تشير كلمة "أليتيك" في المنطق الصوغي إلى أنّ القضايا هي صحيحة وخاطئة في الوقت نفسه، وضرورية وعرضية في الوقت ذاته وممكنة ومستحيلة في الوقت ذاته. وقد استعيرت هذه المقولة من المنطق للتعبير عن العوالم السردية التخييلية التي تسمح لنا بتصور حالات هي في الوا قع مستحيلة إلاّ أننا ننظر إليها في العالم السردي باعتبارها واقعة ممكنة كما هو الحال مع الذئب الذي يتكلم.] أمبرتو إيكو: 6نزهات في غابة السرد، ترجمة: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء–المغرب/بيروت–لبنان، الطبعة الأولى 2005، ص147.
52- محمد علي العجيلي: الأخلاق عند فرويد –دراسة تحليلية ونقدية–، ص201.
53- ذكر الذئب في القص القرآني: كقصة سيدنا يوسف –عليه السلام– وبراءة الذئب من دمه، وقد اتّهمه إخوته كذبا وزيفا. وفي المثل يقولون 'براءة الذئب من دم يوسف'، و 'أصح من ذئب' ذلك أن الذئب لا يصيبه كثير علل إلا الموت.
54- محمد علي العجيلي: الأخلاق عند فرويد –دراسة تحليلية ونقدية–، ص ص198و199.
55- تتناول الفانتازيا الواقع برؤية غير مألوفة أو سحرية.
56- سورة البقرة، الآية34.
57- سورة الكهف، الآيات93-99.
58- سورة هود الآيات43و44.
59- من مثل أفلام: ' The Last Samoray '، 'Noah"2012"، وغيرها...

60- كمال عبد اللطيف: أسئلة النهضة العربية 'التاريخ –الحداثة – التواصل'، مركز دراسات الوحدة العربية بيروت–لبنان، الطبعة الأولى تشرين الأول:أكتوبر 2003، ص 201.

61- جورج طرابيشي: هرطقات –عن الديمقراطية والعلمانية والحداثة والممانعة العربية–، ص173.

62- المرجع نفسه، ص ن.